

حتى صارت دقيقاً وصببت عليه بولي لأعمل منها حبراً.
ثم شاع في حنايا أضلعي نور الوحي وناره وفاض الشعر وخرج
من فمي كما يخرج الخبز من الفرن. ولأعد الآن الى غاييتي
الأولى فأقول: على المرء ان يتوقع الشر الذي قدر له قبل أن
يفكر بما سينال من خير.
في جوّ السجن تجد الفنّ، والعلم. فإن كنت في حاجة للتسرية فمارسهما
وإذ ذاك ستشيع الحرارة في عروقك فيجري دمك. وفضلاً
عن هذا ففي كلّ سجن قوى طبيعية تجعلك بليغ اللسان، جريئاً
شرساً. حسن المحادثة عن مصدر الخبز والشرّ.
سعيد ذلك المرء الذي يبقيه سجانوه معتقلاً ثم يُفرج عنه.
إنه ليعرف معنى الحرب والسلام، وكيف تُهتك العهود. وسينجح
في كلّ ما يباشر من عمل. فالسجن يمنحه قوى وملكات عظيمة.
ولن يندفع به عقله الى مواطن العبث والمرح.
وقد تحتجّ عليّ بقولك إنك أضعت من حياتك سنوات وأن ماكتبت في
السجن غير حقيقي. فلا سجن ثمّ يُنضجك عقلاً أو روحاً.
إلا أنني سأمدحه ولن أكفّ عن ذلك مطلقاً. وإن كنت سأضع
إستثناءً واحداً وهو سجن من يستحقّ السجن.
على كلّ أولئك الذين يمسون بزمام السلطة أن يتعلموا دروساً من السجن
فيحكموا بتعقل وحكمة لمصلحة رعيّتهم. ويتصرفوا بالعدل ولايحيدوا
عن ذلك طوال حياتهم ولايسمحوا بتغلّب الأهواء والإضطراب
على النظام والإتزان. ولكنني أرى وأنا جالسٌ في زنزانتى عدداً
كبيراً من الكهنة والرهبان ورجال الحرب يدخلون السجن دون
وجه حقّ. وإنه لمن المحزن أن تجد بابه يفتح لإستقبال أحدهم
ويبقى مغلقاً في وجهك. فتتألم وتتعذب حين تُترك حيث أنت ويُطلق
سراح واحد منهم. ولايعود عندك شيء تفكر فيه غير اليأس.
إلا أنني أصبحت نقياً كالذهب الإبريز وعليّ أن أعرف قيمتي
العالية ولن أضيف أكثر من هذا لأن الذهب لا يحتاج الى ثناء
إلا أنني سأصّب في أذنيك (يا لوكا) شيئاً تذكرته وكنت قد نسيتته.
في كتاب الله المقدس دونت ماجرى لي. كتبت على هامشه بقلمى والألم
يغتذي من جسمي، بالحبر الذي صنعته من ذلك المعجون القذر، إن

كلّ الموتى الذين كان الجحيم مصيرهم لم يعانون أسوأ من هذا .
كان عليّ أن أغمس قلمي فيه ثلاث مرات حتى أستطيع كتابة حرف (و)
سأكون ساكناً، فلست أول إنسان امتُحنت بهذا دون سبب. إلاّ
أني سأكتب هنا ما قاسيت من العذاب المبرح وأمدح زنازة السجن
بكلّ طاقتي. متوجهاً بقولي الى أولئك الذين يجهلون ناصحاً:
إنكم بدونها لاترقون الى الأعلى. ولو أن أحدكم يقول لي كما قال
الربّ عند الساحل: "قم يا بنقنوتو خذ ثيابك وإنهض" فإنني
سأرتل من أعماق قلبي صلاة "السلام لك يا ملكة" "Salve regina crado"
مع "أبانا الذي في السماء Paternosters" وسأوزع الصدقات على
الفقراء والعريان والمقعدين دون إنقطاع.
كم من مرّة صبغت الزنايق وجنتي بالإصفرار وبلغن بي حاقّة
الموت وأنستني سحر فلورنسا وفتنة فرنسا. وإذا ما شاهدت
وأنا أسير في المستشفى بشارة العذراء الطاهرة، فلا يسعني
إلاّ الفرار لثلاث تثير زنبقة الملك جبرائيل^(٢٥١) طباع الوحش الغليظة
إني لا أجدف على العذراء النقيّة البريئة من كلّ عيب، ولا أقصد
إهانة زنايقها البهيبة الطاهرة التي تتألأ لتنير الدنيا والسماء فوقها
لكن أين وجهت أنظاري، فلا أرى غير العدد الكبير من تلك الزنايق ذات
التويجات المعقوفة فأرتعد فرقاً ورعباً. أين وجهت بصرك فلا ترى
إلاّ أولئك العبيد الكثيرين يرسفون في قيود شعار آل
(فارنيزي) تلك الأرواح السامية التي جاء بها الله من الفردوس.
إلاّ أنني رأيت هذا الشعار القتال يسقط من السماء بسرعة وينشر
الشر بين الناس. ثم يسقط على الحجر نور جديد
يضيء الجميع. وقبل أن أنال حريتي لأبد وأن يتصدع
ناقوس الحصن: وهذا ما أعلنه الله الخالق الذي يكشف كلّ
شيء. ثم رأيت تابوتاً قاتم اللون قرب الحجر، مع زنايق مكسرة^(٢٥٢)
وصلباناً ودموعاً حزينة. وأناساً مكروبين على أسرّتهم يتنون
ورأت عيناى الموت وهو يعذب ويمزق الأرواح إعتباطاً
عند ذلك قالت الروح "سأخذ كلّ من يخشاه بنقنوتو).
ثم كتب ذلك الكائن النبيل العظيم بقلم

(٢٥١) يتألف شعار آل فارنيزي من سبع زنايق معقوفة التويجات. ويرى في شعار فلورنسا زنبقة واحدة. أما شعار
فرنسا فيتألف من ثلاث زنايق. ويرسم الملك جبرائيل الذي بشر العذراء مريم بجنينها مسكاً عادةً بزنبقة واحدة.
(٢٥٢) إدعى في رؤياه انه أنبيء بوجي من الله، بوفاة محافظ السجن وقتل بيير لويجي.

بطرس الرسول على جبهتي الكلمات التي بدأها. وشدد
عليّ بأن أحفظها سرّاً ثلاث مرات. رأيت الحاكم الأسمى
للشمس وقد إشتتمل برداء من الجلال والسلطان وحوله
الأعوان ما لم تره عين إنسان قطّ. ثم سمعت زقزقة
عصفور في أعلى السور فوثب قلبي وقلت "
هذا يعني خلاصي، وينبيء بموتك!"
فأنتشددت وكتبت نداء حريتي، ولم أطلب العون
والغفران إلا من الله وحده. ذلك لأن أبصاري
تعاني سكرات الموت.

أهو نمر أم دب أو أسد أو ذئب. ليس واحد من
هذه الضواري أكثر منه ظمأً الى الدم. وليس ثمّ أفعى
أكثر منه سماً. (٢٥٣)

ودونك هذا الكايتن القاسي، الذي حذق اللصوصية، أكبر
نذل بين شرّ مجموعة من الجنود. إلا أنني سأليّن من كلامي
فالكلمات تخونني. تصور أولئك الكلاب من الشرطة
وهم يقتحمون منزل أحد الفقراء فيسلبونه ما عنده ويحطمون
الصور المقدسة بحثاً عن الأسلاب. بهذا الشكل جاؤا
اليّ في أول يوم من شهر آب ليجرّوني ويقذّفوا بي الى
قبر أشدّ وحشة. ثم جاء تشرين الثاني (٢٥٤) وولى - وإنهالت
عليّ شتائمهم. وسمعت بوقاً وكأنه يطلق نداء يوم الحشر
فكشفت له معنى ذلك. وقد أرغمتني كأبتي وأحزاني
أن ألقأ الى الشراسة والتحدي ثم جاءت الحبيبة الحائرة. عندما دسّوا لي
مسحوق الألماس وجعلوني أتناوله مع طعامي قاصدين القضاء عليّ
بشكل أكيد. إلا أنني طلبت من ذلكم المحتال الشرير أن يتذوقه
ولهذا الذي جلب طعامي قلت: (لن يتحقق هذا الذي يبيته
لي دورانتي). وقبل هذا وجهت كل أفكارني الى الله متضرعاً
وطالباً الغفران لكلّ ذنوبي. وتلوت تسيبحة الخلاص، برأس
منحن. فزال بعض آلامي. ويفكر ثاقب وعزم راسخ أودعت
روحي في يد الله بكل رغبة ليأخذني الى ملكوته الذي كنت

(٢٥٣) المقصود بهذه الأبيات وما قبلها: بيير لويجي.

(٢٥٤) كان قد قال لأحد حراسه بأنه سيكون مطلق السراح في شهر تشرين الثاني.

أتشوق إليه. وأقبل ملاك من عند الله بكل جلالٍ يحمل
سعةً ووجهه يطفح بشراً. ووعدني بإطالة أمد حياتي
وقال: "إن الله سيشنّ حرباً عواناً على أعدائك ويسحقهم سحقاً.
وستنعم مرة أخرى بحياة هنيئة. وستبقى في رعاية الله الذي
له السلطان المطلق على الأرض والسماء".

الكتاب الثاني

مكثتُ في قصر كردينال (فرارا) ضيفاً، موضع إحترام الجميع وقبلة لعدد من الزائرين يفوق بكثير ما إستقبلت في المرة الأولى وهم لا يكتفون عجبهم من نجاتي وكيف اني مازلت حياً بعد المصائب المريعة التي حلّت بي. وكنت أثناء عنايتي بصحتي وممارسة فنّي أجنبي اعظم لذة في مراجعة ملحمتي الشعرية وتهذيبها. وعزمت مراعاةً لصحتي على قضاء فترة نقاهة في الهواء الطلق خارج المدينة فزودني صديقي الكردينال بعدد من الخيل مشفوعةً ببركته. فتركت روما برفقة صديقين شابين أحدهما صانع مثلي. وثانيهما لاعلاقة له بالمهنة وإنما رافقني للصحة فحسب. توجهت الى (تالياكوزا) لزيارة خلفتي (اسكانيو) وكان مع أبيه وإخوته وأخواته وزوجة أبيه. ويقصر قلبي عن وصف الحفاوة والرعاية التي أحاطوني بها. ثم ركبت بعد يومين عائداً و (اسكانيو) معي وقطعنا الطريق في أحاديث حول الفن وأنا أتحرق شوقاً للوصول الى روما والعودة الى عملي. وما إن إستقر بي المقام حتى أكملت إستعدادي للبدء في العمل. فإستعدت طُست الفضة الذي كنت قد بدأت به للكردينال قبل إعتقالي وكنت كذلك قد بدأت بالإبريق الأنيق الصغير وكانا قد سرّقا مني مع مجموعة أخرى ثمينة.

دفعت بالطست الى (باگولو) ليشتغل فيه وباشرت في عين الوقت بالإبريق فعملت له تصميماً جديداً ضمنته تماثيل صغيرة كاملة، ونقوشاً بنصف بروز بشكل يتسق مع الطست الذي كان يتضمن تماثيل كاملة البروز وأسماكاً بنصف بروز. وقد حاز إعجاب كل من شاهدهما من حيث تصميمهما المتناسق والنقوش والأشكال التي حفلا بها. كما كانوا كشيرى الشناء على مهارة تلاميذي ودقة عملهم.

وكان الكردينال يمرّ عليّ مرتين يومياً على الأقل لقضاء بعض الوقت معي ويأتي عادة برفقة السيد (لويجي آلأماني) و(گبريل جيزانو: Gabriel Cezano)، فتمرّ بنا ساعات ممتعة معاً. ومع كثرة الأشغال التي في يدي فقد كان الكردينال يثقلني بالأشغال الكثيرة غير ملقٍ بالاً على المتراكم منها عندي. ومما عهد به اليّ صنع ختم الكردينالية وكان بحجم كفّ صبيّ في الثانية عشرة. فرسمت له صورتين مختلفتين واحدة تمثل القديس (امبروجيو St. Ambrogio) وهو يطارد الأريوسين^(١) ممتطياً جواده ويده سوطاً. والثانية تمثّل يوحنا المعمدان وهو يعظ في القفر. وكان التصميم بالحفر الواطيء وفي غاية الإبداع بحيث أقرّ الجميع بأني تفوقت به على (لاويتزيو) العظيم المتخصص في هذا الفنّ. وكان الكردينال في الواقع يقارنه بأختام الكرادلة الاخرين في روما، وتكاد كلها تكون من صنع (لاويتزيو) فيطيب نفساً لتفوق ختمه عليها جميعاً.

(١) القديس امبروزيو هو شفيح مدينة ميلان. قيل أنه ظهر فجأة في ساحة معركة (پارابيوگيو Parabiago) (١٣٣٩) ركباً حصاناً لمساعدة مواطنيه الميلانيين ضد لودفيگو فيسكونتي. ومنذ ذلك الحين وهو يصوّر فارساً يشابه الخبيرة. عن هذه الميدالية أنظر (پلون، ص١٩٢). يعتبر القديس الميلاني المولد (٣٣٩-٣٩٧) أباً للكنيسة الكاثوليكية الغربية. سيم أسقفاً على ميلان قبل أن يتعمد. وشنّ حرباً على أريوس الأسكندري (٤٨٠-٣٣٦) الذي أنكر ألوهية المسيح وكان السبب الأصلي في إنقسام الكنيسة المسيحية الى شرقية وغربية.

بالإضافة إلى هذين العملين أمرني الكردينال بعمل تصميم لمملحة ولكنه شدد عليّ بأن تكون مختلفة عن النوع الإعتيادي. وألقى لويجي خطبةً بليغةً حول ما ينبغي أن يمثله تصميم المملحة. ثم قام (كابرييلو جيزانو) بدوره بإبداء ملاحظاته حول أوصافها وما يجب أن يُنقش فيها. وأصغى إليهما الكردينال بكلّ أدب. وأبدى سروره الشديد بالنموذجين اللذين إقترحهما هذان الجهيدان وأتيا إلى إعطاء صورة وصفية لهما. ثم إلتفت إليّ قائلاً:

- إني مسرور جداً يا عزيزي بنقوتو بالنموذجين اللذين إقترحهما لويجي وكابرييلو حتى صرت محتاراً في أيهما أختار. وبما أنك أنت الذي ستطبقهما فأنا أترك الأمر لك.
قلت:

- تعلمون أيها السادة ماهي مكانة أبناء الأباطرة والملوك وكم تبلغ من الأهمية. وتعلمون أيضاً المهابة والجلال الذي يبدون فيه. ومع هذا فلو سألتهم راعياً فقيراً من الدهماء: أيهم أحب إليه؟ أولاده أو أولاد الملوك أولئك؟ ليس من شك في أنه سيجيب بأنه يحب أولاده. كذلك أنا. فحبي عظيم أذخره لأولادي الذين أخلقهم لممارسة فنيّ. وسيكون أول نموذج تتملأه عينك يا حامي ومولاي الكلّي الإحترام- هو من صنع يدي وإختراعي. كثير من الأشياء تبدو جميلة ساحرة. ولكنها لا تبدو كذلك إذا ما تمّ تطبيقها عملياً.

ثم إلتفت إلى الأديبين الكبيرين وأردفت قائلاً:

- إنكما تكلمتما أما أنا فسأعمل.

فإبتسم الأستاذ لويجي وبدأ بكل طيبة يلقي خطبة ساحرة قصيرة تتضمن الثناء عليّ. وناسبه هذا تماماً إذ كان في غاية الوسامة وتناسق الجسم. إلى جانب رخامة في الصوت. في حين كان الأستاذ (كابرييلو) يعكس ذلك تماماً. فقد جمع إلى قبح الوجه غلاظة طبع. ولذلك كان كلامه شبيهاً بوجهه. في خطبة (لويجي) إقترح عليّ أن أتخذ صورة فينوس وكيوبيد مع ما يناسبهما من تهاويل وزخرفة وكانت فكرة الأستاذ (كابرييلو) تتركز في إتخاذ (أمفتريتي Amphitreti^(٢)) والـ(تريتون Triton^(٣)) وأشياء كثيرة أخرى قد تبدو لطيفة عند الوصف لا العمل.

مهما يكن فقد كان تصميمي يتألف من شكل بيضيّ سعته تزيد عن أربعة عشر إنجاً (أكثر بقليل من نصف كوبيت). في هذا الشكل البيضيّ خالجتني فكرة معانقة الأرض للبحر فصممت تمثالين يزيد طولهما على طول الكف الإعتيادي بقليل ووضعتهما متقابلين على طرفي البيضة بحيث تتشابه أرجلهما في الوسط حتى لكأنك ترى أذرع البحر الطويلة تمتد إلى اليابسة ومثلث البحر برجل يحمل سفينة أثقلتها بالزخارف. هذه السفينة مجوفة لوضع الملح. وتحت جسم الرجل مباشرة صوّرت خيول البحر الأربعة. ووضعت في يد الرجل اليمنى رمحاً مثلث الشعب. أما الأرض فمثلتها بامرأة جميلة الوجه متناسقة الجسم بأدق ما تفتقت عنه مخيلتي. وجعلت إلى جنبها معبداً أكثر من زخرفته ويدها

(٢) في أساطير الإغريق هي زوجة نبتون (بوسيدون) آلهة البحر. ابنة أوقيانوس.

(٣) هما إبتان لپوسيدون من أمفتريتي. ويصرون عادة بذب سمة ورأس وجذع إنسان.

مستقرة عليه. خصصت المعبد لوضع التوابل. أما يدها الثانية فقد أمسكت بـ(كورنوكوپيا Cornocopia^(٤)). وحشّدت ما لا يحصى من الزخارف الجميلة. وتحت هذا كله ومن الجانب الذي خصصته لليابسة صورت طائفة من مختلف الحيوانات الجميلة التي تعيش في البرّ. بينما جمعت في الجانب المائي كل أنواع الأسماك والقواقع والحيوانات البحرية قدر ما يتسع المجال. أما بقية البيضة فقد زينتها بالنقوش البارزة.

وبعد فراغي من التصميم رحت أنتظر مقدم الكردينال. ومالبت أن أقبل بصحبة رفيقيه الجهبذين. فسارعت بعرض التصميم عليه فسبق (كابرييلو چيزانو) إذ هتف قائلاً:

- هذا عمل لا يمكن إنجازه بأقلّ من عشرة رجال متفرغين يفنون فيه حياتهم.

ثم إلتفت الى الكردينال وقال:

- أما بالنسبة إليك يا مونسنيور، فلعلك راغب فيه إلا أنك لن تحوزه في حياتك. أراد (بنقنوتو) أن يرينا أولاده إلا أنه لم يرد ان ينزل عنهم تماماً كما أردنا نحن. كنا نتحدث عن أشياء يمكن إنجازها. وما يرينا الآن هو بكلمة مختصرة مستحيل.

وهنا إنحاز السيد (لويجي) الى جانبي. إلا أن الكردينال لم يرد أن يربط نفسه بمثل هذا المشروع الكبير. عندئذ إلتفت إليهم وقلت:

- مولاي الكليّ الإحترام! سيديّ العالمين الكبيرين! إسمحوا لي بهذا القول: إني أمل أن أنجز مثل هذا العمل لمن قدر له أن يملكه. وسترونه كلكم وهو كامل أجمل بمائة ضعف وأدق من التصميم. وإني متأكد بعون الله بأن لديّ من الوقت المتوفر لأنجز أعمالاً أعظم وأسمى بكثير من هذه المملحة.

أجاب الكردينال بشيء من الغضب:

- إن لم تعملها للملك الذي سأخذك إليه. فلا أظنها تُعمل لأي شخص غيره.

ثم أراني الرسالة التي تتضمن فقرة ذكر فيها الملك بأن الكردينال يجب أن يستعجل العودة ومعه (بنقنوتو). فرفعت يدي الى السماء وهتفت:

- رباه متى ستكون تلك العودة العاجلة؟

أوصاني الكردينال بأن أقوم بتصفية كلّ أعمالني في روما وأن أكون مستعداً تماماً خلال عشرة أيام.

عندما حان وقت السفر أهداني الكردينال جواداً أصيلاً حسن السمّت، إسمه تورنون Tomon كان هو قد تلقاه هدية من سميه تورنون^(٥). وزود (باگولو واسكانيو) بحصانين أيضاً. وكانت قافلة الكردينال ضخمة. فقسّمها قسمين. الأول منهما ضمّ عليّة القوم، وإختار طريق رومانيا Romagna ليؤدي فريضة الحج لسيدة (لوريتو) وبعدها يتجه الى (فيرار) مسقط رأسه.

أما القسم الثاني فيسلك طريق فلورنسا، ويضم معظم القافلة ويتألف من مجموعة كبيرة من

(٤) هو قرن عنزة مقوّس مثقل بالزخرف من فاكهة وغيرها. إستخدمه فنانو الرينسانس.

(٥) كردينال تورنو وزير معروف للملك فرانسوا الأول.

الرجال وبضمنهم نخبة فرسانه ونصحني بأن أرافقه إن شئت ضمناً لسلامتي وإلا تعرضت حياتي للخطر. أجبته نيافته إنني لأرغب في هذا. إلا أن إرادة السماء شاءت أن أتذكر أختي المسكينة التي شفها الحزن لما لحقني من أوزار، كذلك تذكرت إبنتي عمي الراهبتين في (فيتيريو Veterbo) (٦) إحداهما رئيسة الدير والأخرى المسوولة عن الإدارة. وبذا تكون مقدرات هذا الدير الغني منحصرة فيهما. ألمهما ما حصل لي جداً وصلبتنا لأجلي بحرارة. وقد جزمت أن صلاة هاتين العذرائين المسكينتين قد حننت قلب الله عليّ فنلت نعمة الحرية. كل هذه الأفكار خالجتني فدفعتني الى فلورنسا دفعاً. ولو كنت في قافلة الكردينال لضمنت سافراً مجانياً في أي قسم منها لكنني قررت السفر بمفردتي. ورافقني الأستاذ (كيروينو Cherobino) صانع الساعات الشهير وهو أحد أصدقائي. إلتقينا في أول الرحلة وإتفقنا على السفر معاً وقضينا وقتاً ممتعاً للغاية.

خرجنا من روما نحن الثلاثة نهار الإثنين من أسبوع الآلام. وإلتقينا برفيق السفر المتقدم ذكره في (مونتي روسي Monte Russi) (٧). ولما كنت قد صرحت بأني من حاشية الكردينال ومن ضمن قافلته فما تصورت أن يجرأ أعدائي على نصب كمين لي. إلا أن الأمور كادت تنتهي بكارثة في (مونتي روسي). إذ لحقت بي عصابة من الرجال مدججة بالسلاح فسبقتني الى (فيتيريو) لمهاجمتي. شاءت إرادة الله أن يعرفوا بأني سأسلك هذا الطريق وحدي لا مع قافلة الكردينال فأطبقت عليّ وأنا أتناول طعام الغداء. وفي تلك اللحظة بالذات بدأت طلائع فرسان الكردينال فحبطت خططهم وسرت برفقة الفرسان حتى (فيتيريو) بنفس مطمئنة وبأمن من كل خطر. لاسيما وإنني لم أكن أتقدم القافلة إلا بمسافة أميال قليلة. وصلت فيتيريو والحمد لله سالماً. ورحبت بي إبتنا عمي وبقية الراهبات أحرّ ترحيب.

تركت فيتيريو مع الرفقة التي تقدم ذكرها نتأخر عن قافلة الكردينال مرةً وتقدمها مرةً أخرى. وفي الساعة الثانية قبل مساء خميس الفصح وجدنا أنفسنا في مشارف (سيينا) وكان ثمّ خيول بريد عائدة والموكلون بها يرغبون في إستكرائها بأجر زهيد لمن يريد أن يستفيد منها ويسلمها الى صاحب البريد في (سيينا). فترجلت عن (تورنون) ووضعت سرجه وخرجه على عاتق واحد من الخيول المكتراة. ونفحت صبي الإسطليل بـ(گويلو) وتركت جوادي بعهدة تلميذي وإنطلقت قبلهما الى سيينا بنصف ساعة إذ كنت أريد زيارة بعض الأصدقاء وتصريف أشغال لي. ولم أجهد الحصان وإن كنت أحتشه. وبيلوغي المدينة إستأجرت في فندق غرفة جيدة تتسع لأبواء خمسة أشخاص. وأمرت خادماً صبياً بأن يقود الحصان الى محطة البريد التي كانت تقع خارج باب (كاموليا Camollia) إلا أنني نسيت ان أرفع عنه السرج والركاب.

قضينا أمسية عيد الفصح في أنس وسرور. وفي اليوم التالي يوم الجمعة العظيمة تذكرت سرجي وركابي. فبعثت بطلبهما لكن صاحب البريد أبى إعادتهما بحجة أنني أجهدت حصانه حتى كدت

(٦) شمال روما وعلى مسافة سبعين كيلومتراً.

(٧) تقع بين روما وفيتيريو على طريق فلورنسا.

أتلفه. وتبادلنا الرسائل بين أخذ وردّ وأصرّ عليّ أن لا يعيد لي سرجي وركابي مضيفاً الى ذلك بعض الشتائم وعبارات التحدي وقال لي صاحب الفندق الذي كنت نازلاً فيه:
- من حسن حظك أن يكون كلّ الضرر الذي أصابك منه هو فقدان سرجك والركاب.
ثم أردف يقول:

- لا يخفك أنه أشرس مخلوق قد تقع عليه في هذه المدينة وإبناه المقاتلان الجريئان هما شرّ منه. وفي رأيي أن تعتبر سرجك وركابك في حكم المفقودين وتبتاع لنفسك ماتريد وتذهب في حال سبيلك دون أن تلفظ كلمة واحدة. فإبتعت فعلاً ركاباً. ولكنني فكرت في أنه قد ينفع معه الكلام اللطيف ويردّ لي سرجي المحكم الوثير. فضلاً عن هذا فقد كنت فوق جواد مطهّم وأنا كامل السلاح بزرد محكم مع قفازين واركبوسي^(٨) (بندقية ثقيلة) فوق السرج. ولذلك رغم الوصف الذي خلعه صاحب الفندق على رجل البريد فإني لم أشعر بأقلّ خوف. كنت كذلك قد عودت تلميذي الشابين على إرتداء الزرد مع الأكماس وكنت عظيم الثقة في الشاب الروماني الذي لم ينزع عنه زرده طوال وجودنا في روما في حين كان اسكانيو رغم حداثة سنه قد تعود إرتداءه أيضاً. وعلى أية حال كنت أتصور أن المجانين في يوم الجمعة العظيمة هذه قد يمنحون جنونهم إجازة ويتحلّون بشيء من العقل إحتراماً لهذا اليوم. بلغنا باب (كاموليا) وتبينت صاحب البريد لما أبصرته من الأوصاف التي أعطيت لي فقد كان أعور الشمال. دنوت منه وأنا على صهوة جوادي متقدماً تلميذي ورفاق السفر بمسافة.

ثم إبتدته قائلاً بأدب:

- أوكد لك يا صاحب البريد أنني لم أجهد حصانك. فلم لا تتكرم عليّ بإعادة سرجي وركابي؟
فأجاب بعين ما قبل لي أنه سيجيب أعني إجابة وحشٍ فظّ.
عندئذ قلت متعجباً:

- هيا، هيا إنك مسيحيّ. أتريد أن نسبب لأنفسنا فضيحة في يوم الجمعة العظيمة؟
فأجاب إنه لا يهتم قلامه ظفر إذا كانت الجمعة عظيمة أو صغيرة. وإنه في حالة عدم إنصرافي فسيردني قتيلاً مع أركبوسي بالرمح الذي أسرع بتناوله. سمع هذه الكلمات الجارحة سيد سيينيّ كبير السن فتقدم نحونا. كان يرتدي لباساً مدنياً عادياً وقد عاد لتوه من صلاة الجمعة العظيمة. وقد سمع عن بعد ما دار وتبين مناقشتي الهادئة فإنحاز الى جانبي وراح يؤنب صاحب البريد تأنيباً شديداً. وإنتهر إبنيه وطردهما لأنهما يسيئان التصرف تجاه الغرباء المسافرين، وقال إن في هذا التصرف تحدياً لله وإساءة لسمعة المدينة فهزّ الإبنان رأسيهما ودلغا الى المنزل دون أن ينطقا بحرف. أثارت عبارات الشيخ الوقور ثائرة الأب فتدفق من فمه سيل من التجديف والكفر ورفع رمحه في وجهي وهو يحلف بأنه سينتزع روحي من جسدي مهما حصل.
ولما تبينت نيّة الشرّ عنده، ولكيما أبقيه بعيداً عنيّ تظاهرت بتسديد فوهة بندقيتي نحوه فزادت

(٨) إخترت هذه البندقية في القرن الخامس عشر ويصعب إستخدامها بغير مسند ذي قوائم.

حركتي من ثورته وحمل عليّ حملةً عنيفةً وكنت متأهباً للدفاع عن نفسي وقد أعددت البندقية لذلك، إلاّ أنني لم أخفضها الى الحدّ الذي تصير مصوبة اليه. بل كانت فوهتها متجهة الى الأعلى. ثم إنطلقت من تلقاء نفسها. وإصطدمت البندقية بقوس الباب وإرتدت عنه لتصيب صاحب البريد في قصبته الهوائية فسقط ميتاً. وفي الحال خرج الإبنان وقد تسلح أحدهما بما وقعت عليه يده من المشجب والتقط الآخر حربة أبيه ثم حملا عليّ تلميذنيّ. هاجم صاحب الحربة (باگولو) الفتى الروماني وطعنه في محلّ ما من الصدر الأيسر واندفع الآخر الى الميلائي الذي كان يسافر معنا، فبدا وجهه وقد فقد كلّ إمارات الحياة من فرط الخوف. وحاول عبثاً إنقاذ نفسه بالصياح متنصلاً من كلّ علاقة له بنا، ثم راح يدافع عن نفسه بالعصا الصغيرة التي يحملها ضد الحربة الضخمة المسددة إليه، إلاّ أن محاولته لم تحل دون إصابته بجرح طفيف في فمه.

كان (گيروينو) يرتدي ثياب الكهنة، إذ كان ينعم بمنصب بابوي ذي دخل طيب رغم كونه أستاذاً قديراً في صناعة الساعات كما ذكرت ولذلك لم ينله أذى. وكان اسكانيو مسلحاً لا كالميلائي فثبت وقاتل ولم يصب بأذى. ولكرت جوادي فنفر بي مسافة تمكنت من خلالها من حشو بندقيتي ثم ألويت عنانه وكررت راجعاً الى ساحة المعركة وقد فار دمي في عروقي. كنت أعالج الموضوع باستخفاف وأعده من قبيل المزاح فلما إنقلب الأمر جداً صممت أن أخذه بما يستحق من جدية. تصورت أن تلميذنيّ قد صرعا، فقررت أن أموت معهما ولكن ما إن تقدم بي جوادي قليلاً حتى رأيتهما مقبلين نحوي فسألتهما هل أصيبا؟ فقال (اسكانيو) ان (باگولو) اصيب بطعنة حربة قتالة. فصرخت:

- باگولو! ولدي العزيز. إذن فقد اخترقت الحربة زردك؟

فأجاب:

- كلا فقد حزمته في أمتعتي صباح هذا اليوم.

فقلت حانقاً:

- إذن فالزرد تلبسه في روما للإختيال أمام الغواني؟ أما عند الخطر والضرورة فهو يحزم مع الأمتعة! إنك تستاهل محلّ بك. وها إني الآن بسبب خطئك أعود لألقى حتفي.

قلت هذا واندفعت الى أمام فتشبت بيّ هو واسكانيو متوسلين بمحبة الله أن أنقذ نفسي معهما لأنني بالتأكيد ذاهب الى حتفي. ثم أقبل (گيروينو) والميلائي الجريح. وصرخ حالاً بأن الجميع سالمون وأن (باگولو) لم يصب إلاّ بجرح سطحي كما أنبأني بمقتل صاحب البريد وإن ولديه وجمعاً من الرجال يتأهبون لتعقيبنا وسيقطعوننا إرباً إن ظفروا بنا. ثم أردف يقول:

- مادام الحظ قد واتانا وخرجنا من العاصفة الأولى سالمين، فلا تجرّبة مرةً أخرى وإلا تخلى حظنا عنا. ألا فلنسرع يا بنقنوتو.

فأجبته:

- إن كان هذا رأيك فأنا موافق.

ثم إلتفت الى باگولو واسكانيو وقلت:

- اعملا ارجلكما في مهمازيكما. وجهتنا (ستاجيا Staggia)^(٩) دون وقفة وسنكون آمنين.
وصرخ الميلاني الجريح:
- يحق الله ذنوبنا! السبب الوحيد لإصابتي هو أنني أكلت قليلاً من الحساء إذ لم يكن لدي ما أقتات به سواه.

في وسط متاعبنا وقلقتنا لم نستطع حبس فقهاتنا لسخافات هذا الأحمق وهرائه. واحتششنا خيلنا تاركين (غيروينو) والميلاني خلفنا ليلحقا بنا على هونهما.
في تلك الأثناء أسرع إبننا القليل الى دوق أمالفي Amalfi^(١٠) وطلبنا منه كوكبة من الفرسان الخفيفة للحاق بنا وإلقاء القبض علينا. إلا أنه رفض طلبهما ومنعهما من اللحاق بنا وتعقيبنا لمعرفة ما كنا من رجال الكردينال فرارا. كنا في غضون ذلك قد بلغنا (ستاجيا) وأمنّا على أنفسنا. وإستدعينا خير طبيب في البلدة، وبعد فحص جرح (پاگولو) تبين أنه لم ينفذ عميقاً ولا خطر منه. فأمرنا بإحضار الطعام. وفي أثناء ذلك لحق بنا (غيروينو) والميلاني الأحمق الذي إستمر يصب اللعنات على كل من يثير الشجار. وصار يشكو بأنه أصبح في عداد المحكومين بالحرم من الكنيسة لأنه لم يتسن له تلاوة "أبانا الذي"^(١١) ولو مرة واحدة طوال ذلك اليوم المبارك. كان قبيح الوجه كأبليس زاده قبحاً الجرح الذي أصابه في فمه الواسع فزاد في سعته إنجمن. وبين رطانتة الميلانية وثرثرته السخيفة بدا مضحكاً الى درجة أنسانا متاعبنا وسوء حظوظنا فلم يسعنا سوى الضحك على كل كلمة يتفوه بها.
وبدء الطبيب يخيظ جرحه وبعد أن أكمل ثلاث درزات طلب منه أن يتوقف قليلاً لأنه لا يريد أن يخيظ فمه كله ثم تناول ملعقة وقال له بأن عليه ان يترك من فمه فتحة تتسع لدخولها ليعود الى أهله حياً! كان يقول هذا ويهز رأسه هزات مضحكة فتواصلت فقهاتنا. وسادنا هذا الجو المرح بدل تأسبنا بما صادفناه من متاعب طوال سفرنا الى فلورنسا.

ترجلنا أمام دار أختي المسكينة فرحبت بنا هي وزوجها أجمل ترحيب. وإنصرف (غيروينو) والميلاني الى شؤونهما. وبقينا في فلورنسا أربعة أيام ولما غادرناها كان (پاگولو) قد تعافى. والغريب إن الضحك كان يستولي علينا كلما تذكرنا أقوال الميلاني المعتوه أو جئنا الى ذكره بقدر ما أبكتنا معاناتنا. وهكذا كنا نضحك ونبكي في آن واحد. إندمل جرح (پاگولو) دون مضاعفات فإنطلقنا الى (فرارا) وإستبقنا الكردينال إليها. ولما وصل هو وسمع بما وقع لنا من مشاكل قال معبراً عن ألمه لما حصل:

- كل ما أطلبه من الله هو أن أوصلك الى الملك حياً، كما وعدته.
وخصص لي جناحاً في أحد قصوره بـ(فرارا) وهو قصر جميل بالقرب من أسوار المدينة يعرف بـ(بلفيوري Bifiori) ووضع تحت تصرفي كل ما أحججه للعمل ثم تهيأ للرحيل الى فرنسا بدوني.

(٩) تقع بين سبيننا وپيجينزي الى الشمال. وهي بليدة صغيرة بينها وبين سبيننا حوالي عشرة كيلومترات.

(١٠) الفونسو بيكولوميني حاكم سبيننا المنتدب من قبل الإمبراطور شارلكان.

(١١) أي الصلاة الربية وتبدأ بـ"أبانا الذي في السماوات...". [وهي في مقام سورة الفاتحة عند المسلمين]

وعندما تبين مبلغ إضطرابي لهذا النبأ قال:

- أعلم يا بنقوتو بأن كل الذي أعمله هو لصالحك. ذلك لأنني أريد أن أتأكد قبل أن أخرجك من أرض إيطاليا- ماذا سيكون واجبك في فرنسا. وخلال هذه الفترة عجل في إكمال الطاس والأباريق فقد ألقيت على وكيلي الأوامر بتزويدك بكل ما تحتاج.

وواصل سفره وتركني أحرق الإرم غيظاً مفكراً بالعودة من حيث أتيت والعدول نهائياً عن مشروع السفر نهائياً ولم يكن يقفني عن هذا إلا فضله عليّ في تحريري من قبضة البابا پولص. وأما خلاف ذلك فقد تركني وأنا غير ممتن. فما فعله أدى الى خسارة مادية كبيرة لي. إلا أنني أقنعت نفسي بأن العطف الذي أظهره لي يستحق الشكر والشعور بالفضل وقررت الإنتظار متذرعاً بالصبر والتريص بما ستؤول إليه الأمور. وبدأت في عملي يساعدني خلفتاي وتقدمت كثيراً في الطاس والإبريق.

كان الهواء في المنطقة التي نسكنها غير صحي. ويتقدم أشهر الصيف ساءت أحوالنا الصحية جميعاً. وفي خلال إعتلالنا كنا نقوم بجولات إستطلاع في الضيعة وكانت جدّ واسعة والأرض مثل حرج تمتد الى مسافة ميل لم تعمل بها يد إنسان ووجدنا عدداً كبيراً من طائر السماني قد إستقر هناك يتوالد كالطيور البرية. وكنت بعد إكتشافي هذا أحشو بندقيتي ببارود لا صوت لإنفجاره وأصطاد طائراً منها بين يوم وآخر، مختاراً صغارها وأنا منبطح. وبذلك تزودنا بمقدار كبير من اللحم الصحي ساعد في إزالة الوعكة عنّا. وقضينا هذه الأشهر القليلة نشغل بالطاس والإبريق وهو عمل تطلب منا كثيراً من الدقة والتركيز- دون أن يعكّر صفو حياتنا معكراً.

في أثناء هذه الفترة من الزمن وفق دوق (فرارا) الى إتفاق مع البابا پولص الروماني حول تسوية خلافات طويلة الأمد بينهما بخصوص (مودينا Modena^(١٢)) وغيرها من المدن. ولما كانت الكنيسة صاحبة الحق فيها فقد ترتب على الدوق أن يدفع لخزينة البابا مبلغاً كبيراً من المال ثمناً للصالح والسلام. وأعتقد أنه كان يبلغ ثلاثمائة ألف دوقية بحساب العملة البابوية^(١٣).

وكان أمين بيت مال الدوق في ذلك الحين رجل عجوز يدعى (السيد جيرولامو كيلبولو G. Giliolo) نشأ في رعاية الدوق (ألفونسو) والد الدوق الحالي. هذا الرجل الشيخ صعب عليه تسليم المبلغ الطائل الى البابا. وشفّه الحزن وإعترته نوبة عاطفية فراح يدور في الشوارع شاكياً بأن الدوق ألفونسو والد الدوق الحالي كان سيستخدم هذه الأموال لإحتلال روما بدلاً من تسليمها طواعية للبابا وتعذر إقناعه بدفعها. بالأخير أجبره الدوق على تسديدها فإنتابه نتيجة ذلك إسهال شديد كاد يقضي على حياته. وفيما هو عليل طريح الفراش إستدعاني الدوق وأمرني بعمل صورة معدنية له. فعملتها على حجر أسود دائري الشكل في حجم صحيفة طعام صغيرة. وكان الدوق يجني لذة عظيمة من متابعة عملي في صورته، فضلاً عن إستمتاعه بمبادلتني الحديث طويلاً وهذا يعني في كثير من الأحيان جلوسه أمامي من أجل الصورة أربع أو خمس ساعات على الأقل. ودعاني عدّة مرات لتناول العشاء

(١٢) تقع بين بولونيا وبارما وهي على بعد حوالي (٤٠) كيلومتراً الى الشمال الشرقي من الأولى.

(١٣) في الحقيقة أن المبلغ هو مائة وثمانون ألفاً. وقد ثبت للدوق مقابل هذا حقوقه في دوقية ديستي d'Este.

معه. أنهيت صورة الوجه خلال أسبوع فأمرني أن أعمل لها ظهراً، وكان التصميم يرمز الى السلم مثلاً بإمرأة تمسك مشعلاً هي تحرق كدساً من الأسلحة. صورت المرأة وهي مفترسة الثغر كاملة الأنوثة مرتدية غلالة شفافة. وجعلت (فيوري) تحت قدميها يائسة مثقلة بالسلاسل في حالة بؤس شديد. وقد أجهدت نفسي في تحري الكمال والدقة في العمل وأكسبني ذلك شرفاً عظيماً وحظوة عند الدوق. لم يتوقف الدوق لحظة عن إبداء مقدار إرتياحه ورضاه وأعطاني العبارة التي أراد كتابتها في أعلى الظهر وهي كالتالي: "شري السلم بالمال الطائل pretiosa in conspectu domini". وفيما أنا مشغول بعمل الظهر وصلتنني رسالة من الكردينال يطلب التهيؤ للسفر لأن الملك قد إستدعاني وأضاف يقول أنه سيعلمني في رسالته التالية بتفاصيل كل ما وعدني به. فحزمت الطاس والإبريق بعد أن شاهدهما الدوق.

كان للكردينال وكيل أعمال من أهل فرار يدعى (ألبرتو بنديديو Alberto Bendidio). هذا الرجل كان يشكو علّة مستعصية جعلته قعيد الدار لمدة إثنين عشر سنة لم يبرح خلالها فراشه. وفي ذات يوم إستدعاني اليه بصورة عاجلة وأبلغني بوجود الإنضمام فوراً الى قافلة البريد للتوجه الى الملك الذي كان دائم السؤال عني معتقداً اني في فرنسا وقد اعتذر الكردينال لنفسه بالقول اني كنت قد اصبت بوعكة وأنا أعيش في دير له في (ليون) لكنه سيسبقني بدون تأخير. ولذلك أصر السيد (بنديديو) بالسفر مع البريد بأسرع ما يمكن.

السيد ألبرتو إنسان مستقيم الى أبعد حد، إلا أن المرض الذي يعاني منه جعله حاد المزاج ضيق الصدر الى درجة لاتطاق. وقد أمرني كما ذكرت بأن أستعد فوراً وأسافر مع البريد السريع. فكان جوابي أن فني لا يمكنه السفر بالبريد السريع وإذا ماقررت السفر فسيكون ذلك على مراحل وبشكل مريح وأن يرافقني مساعداي (پاگولو واسكانيو) اللذان جئت بهما من روما. وفضلاً عن هذا فإني أحتاج الى خادم بحصان يقوم على خدمتي الى جانب مبلغ من المال يكفيني للرحلة.

فردّ عليّ الشيخ المريض بجواب فيه من الغلظة والغطرسة مافيه، قال:

- إن رحلة كهذه التي وصفتها هي لأبناء الأمراء وليس لغيرهم.

فأجبت أن أبناء مهنتي يسافرون على الشكل الذي وصفته له. ولما لم أكن ابناً لأمير فأنا أجهل تماماً كيف يسافرون. وإن أراد أن يسترسل في صبّ مثل هذه الخطب الغريبة في أذني فسأعدل عن السفر نهائياً. وأضفت قولي:

- أخلف الكردينال وعده من جهة، وأنا الان أتلقى الإهانات بهذا الشكل من جهة أخرى؛ لهذا صممت على أن لا أتعامل مع أي فراري بعد الآن.

ثم أدت ظهري وإنصرفت وهو يطلق تهديداته وأنا أردد إحتجاجاتي.

توجهت الى الدوق وسلمته الميدالية كاملة فطار بها فرحاً وأغرقتني بالمديح حتى أخرجتني وكان قد سبق له فأمر (السيد جبرولامو كيليلولو) بأن يحصل على خاتم الماسي بقيمة مائتي كراون وأن يدفعه الى أمين السرّ (فياسكينو Fiaschino) ليقدّمه هذا لي مكافأة على أتعابي. وقد جرى ذلك وجاءني

(فياسكينو) بعد الغروب بساعة ودفع اليّ بخاتم ترصعه ألاماسة رائعة المنظر وردد رسالة الدوق الشفوية لي "على سبيل الذكرى من سموه، فلتزدان يد الفنان الفريدة بهذه الألاماسة تلك اليد التي أنجزت مثل هذا العمل الدقيق".

في صباح اليوم التالي تفحصت الألاماسة فوجدتها رقيقةً "تافهة" لاتسوى أكثر من عشرة كراونات. ولقد كرهت والحق يقال أن يرفق رسالة الدوق العالية مثل هذه الهدية التافهة. ولعلمي ان الدوق قد ظنّ أنه أحسن مكافأتي ودفع اليّ بشيء حاز رضاي. ولأنني قدّرت بأن هذا التصرف هو من عمل أمين خزانته النذل. فقد سلمت الخاتم الى صديق لي ليعيده اليّ (فياسكينو) بألطف ما يمكن. فقام صديقي هذا وإسمه (برناردو سالييتا B. Salita) بالمهمة خير قيام. فما كان من هذا إلا أن أقبل مسرعاً اليّ، رافعاً عقبيرته بالإحتجاج وقال لو أن الدوق علم برديّ الهدية التي قدمها اليّ بكيّ وكيت من الإلتفات والتقدير لأستاء جداً وربما سأندم على عملي وألقى ما أكره. فأجبت أنه هدية سموه لاتسوى أكثر من عشرة كراونات وعملي يسوى أكثر من مائتين. لكنني إظهاراً لإمتناني من الدوق أرجو ان يهديني خاتم تعويذة^(١٤) من النوع الذي يستورد من بريطانيا ولايسوى أكثر من درهم وسأبقبه ذكرى عزيزة لسموه الي جانب رسالته الرقيقة. معتزلاً بها طوال حياتي. فإن مجرد خدمته هو أجره لأتعايي. أما هذه الألاماسة التافهة فهي إهانة لي ليس إلا.

ألمت كلماتي هذه الدوق فأسرع بإستدعاء أمين خزانته وإنهال عليه لوماً وتقريراً بشكل لم يسبق من قبل. ثم أمرني بأن لا أغادر فرارا وإلا تعرضت لسخطه، وأن أخبره شخصياً قبل ذلك. ثم أمر أمين خزانته بأن يقدم لي الألاماسة لاتقل قيمتها عن ثلاثمائة كراون. إلا أن هذا العجوز الشحيح إنتقى الألاماسة أخرى لاتزيد قيمتها عن ستين كراون زاعماً أنها تسوى أكثر من مائتين بكثير.

ما ليث (السيد ألبرتو) أن عاد الي رشده وزودني بكل ما طلبت وقررت ترك فرارا في ذاك اليوم بالذات مهما كلّفني الأمر إلا أن أمين سرّ الدوق المتطفل رتبّ مع (ألبرتو) بأن لا أحصل على الخيول في ذلك اليوم. كنت قد حزمت فوق أحد البغال أمتعة كثيرة جداً من ضمنها الطاس والإبريق اللذين صنعتهما للكردينال. وفيما أنا أشدّ الأمتعة دخل عليّ نبيل من أهل فرار يدعى (ألفونسو دي تروتتي A. de Trotti). كان رجلاً مسناً بالغ اللطف. شديد التعلّق بالتحف الجميلة والتقدير لها. إلا أنه كان من أولئك الذين يصعب إرضائهم، ومن الصنف الذي إتفق لهم ووقعوا على شيء أعجبهم أصروا بأنهم لن يقفوا على أجمل منه. الحاصل عندما جاء السيد (ألفونسو) بادره (ألبرتو) بالقول:

- يؤسفني أنك جئت متأخراً لأن الطاس والإبريق اللذين سنرسلهما الي الكردينال في فرنسا قد تم حزمهما مع الأمتعة.

فأجاب (السيد ألفونسو) لا بأس في هذا وليس مهماً. ثم نادى خادمه وأمره بأن يذهب الي منزله ويأتي بمزهية مصنوعة بشكل فني دقيق من جيس فاينزا^(١٥) الأبيض. وفي أثناء إنتظار عودة الخادم

(١٤) مازال خاتم التعويذة شائعاً وهو من الحديد ويتخذ علاجاً لبعض الأمراض.

(١٥) تقع هذه البلدة جنوب شرق رافنا وعلى بعد حوالي أربعين كيلومتراً.

قال للسيد ألبرتو:

- سأعلمك بسبب قلة إهتمامي بمشاهدة آنية أخرى، فأصل الحكاية إنني رأيت مرةً إناءً فضياً أثرياً رائعاً في غاية الجمال لايسمو الى تصور عقل بشر مثيل له ولذلك عزفت عن رؤية أي إناء آخر لئلا يشوه الإنطباع العجيب الذي خلّفه عندي ذلك الإناء. لقد عرض سراً على نبيل عارف بدقائق الفن في روما إذ سافر إليها في مهمة خاصة فإستطاع أن يغري واضع اليد بمبلغ كبير من المال رشوةً لينزل له عنها فجلبها معه إلا أنه بالغ في إخفائها لئلا ينتمي خبرها الى الدوق فيفقدها.
كان السيد (ألفونسو دي تروتي)^(١٦) يقصّ حكايته الطويلة دون أن يكلف نفسه عناء النظر اليّ مع أنني كنت أفق بقربه إذ لم يكن يعرفني. وفي أثناء ذلك وصل الخادم بنموذجه الجبسي الثمين وأزاح عنه الغطاء بكثير من التيه والمباهاة والتعاطف. فلم أتمالك نفسي وإلتفتت الى السيد ألبرتو قائلاً:

- أي صدفة عجيبة لحسن الحظ إذ أراه ثانية!

ظهرت علام الإنفعال على السيد ألفونسو وصاح بخشونة:

- من أنت؟ إنك لاتفقه شيئاً عما تتحدث به؟

فأجبت:

- الآن عليك أن تصغي اليّ لتعرف من هو أدري من غيره بما يتكلم.

ثم توجهت الى (السيد ألبرتو) الرجل الرزين الذكي. وأخبرته بأن نسخة من منقولة عن إناء فضي صغير وزنه كذا وكذا قمت بصنعه في تاريخ كذا وكذا لطبيب مشعبد يدعى (جاكومو دا كاپري) وإستطردت أقول:

- إنه ذلك الذي قدم الى روما وبقي فيه ستة أشهر يخدع بعلاجه عشرات من النبلاء ووجهاء القوم المساكين معتصراً منهم آلاف الدوقيات. صنعت له أصل هذا الإناء مع إناء آخر يختلف عنه تصميماً أثناء إقامته ولم يدفع لي لقاء أتعابي إلا اليسير^(١٧). وإنك لتجد اليوم كل أولئك الذين عاجلهم بين كسيح أو مقعد يعاني أشد الآلام. إنه لشرف عظيم لي أن تحظى أعماله بمثل هذا التقدير من السادة الأغنياء أمثالكم. ويمكنني التأكيد لكما بأنني لم أدخر وسعاً لأرتفع بفني الى أفاق أوسع منذ ذلك الحين وفي إعتقادي ان الآنية التي أحملها معي الى فرنسا هي أليق بالملك والكردينال من هذا الإناء الذي يملكه طبيبك المحتال.

أثار كلامي هذا شوقاً مستعراً في السيد ألفونسو لمشاهدة آنية الكردينال إلا أنني تمنعت ورفضت وبعد أخذ وردّ طويلين قال انه سيذهب الى الدوق ويطلب منه أن يأمرني بذلك وكاد يسقط ميتاً لفرط لهفته. عندئذ تدخل السيد (ألبرتو) الذي وصفته قبلاً بالغرسة فقال بلهجة متعالية:

(١٦) وزير لدوق فرارا وثق صلته فعلاً مع چلليني فيما بعد حتى انه إستأجر منه منزله في شارع سانتا ماريا نوفللاً

(انظر حاشية لطبعة بيانكي Bianchi، ص ٢٥٨)

(١٧) هذا خلاف ما ذكره في السابق. إذ قال ان الطبيب قد دفع له أجراً طيباً.

- سترهما أيها السيد ألفونسو قبل أن تنصرف. دون حاجة إلى إستخدام نفوذ الدوق. عند هذا تركتهما وانصرفت. وقام (ياگولو واسكانيو) بعرض الإثنائين عليه، فكانت دهشته لا تحدد حسبما أعلمني (ياگولو) وأبدى شوقه الكثير إلى توثيق الصلة بي. وبدا لي وكأن دهرأ مر علي قبل أن أغادر فرارا والنجاة من أهلها. كل حسن لقيت في هذه المدينة هو صحبة الكردينال سالفاتي وكردينال (رافنا) وبعض الموسيقين ولا أكثر. أن أهالي فرارا شديدو البخل يجنون لذة كبيرة من سرقة الآخرين وإحتلابهم ما وسعهم ذلك. وكلهم على هذه الشاكلة. قبل حلول الليل بساعتين جاءني (فياسكينو) وسلمني الأمانة التي لا تزيد قيمتها عن ستين كراوناً. ورجاني بكلمات مقتضبة وبوجه أكلح أن أضعها في إصبعي إكراماً لسموه. فأجبتة: - ثق إنني سأفعل ذلك.

ووضعت رجلي في الركاب وهو ما يزال واقفاً وإنطلقت في رحلتي دون أن أستأذن أحداً. فأبلغ الدوق بتصرفي هذا فثار ثائره لو إستطاع لقلب الأرض والسماء ظهراً لبطن في سبيل إعادتي. قطعت في ذلك المساء ما يزيد عن عشرة أميال هذباً. وعاودني الشعور بالراحة العظيمة عند خروجي من حدود دوقية (فرارا) في اليوم التالي. ذلك لأنني - بإستثناء طائر السماني الذي كنت أقتات عليه وكان السبب في إستعادتي صحتي - لم أستفد شيئاً من الموضع. وسلكنا طريق جبل جينز Genis متحاشين مدينة (ميلان) بسبب الوسواس التي كانت قد داخلتنني^(١٨) ثم بلغنا (ليون) سالمين وكنا أربعة أنا وياگولو واسكانيو وخادم، وتحتنا خيول ممتازة قوية. مكثنا في ليون بضعة أيام في إنتظار المكاري والبغل الذي يحمل أنيسة الكردينال وباقي أمتعتنا. وحللنا في دير يعود إلى للكردينال. بعد أن وصل المكاري جمعنا أمتعتنا كلها ووضعناها في عربة وأرسلناها في طريق (پاريس) ثم لحقنا بها. وقد واجهتنا في الرحلة متاعب طفيفة سأضرب صفحاً عن ذكرها. وجدنا بلاط الملك في (فونتينلو) وهناك قدمنا أنفسنا للكردينال الذي أمّن لنا مسكناً على الفور فقضينا فيه ليلة مريحة جداً. وفي اليوم التالي وصلت العربة فأنزلنا أمتعتنا ولما أبلغ الكردينال بذلك، أخبر الملك الذي أبدى رغبته في رؤيتي حالاً. فقصدت جلالته ومعني الطاس والإبريق. وأسرعت عند دخولي بتقبيل ركبته. ورحّب بي ترحيباً حاراً فشكرت جلالته على تحريري من السجن قائلاً إن أميراً مثل جلالته، رجلاً في مثل طبيئته التي لانظير لها يرى من واجباته تحرير من يملك بعض المواهب ولاسيما الأبرياء مثلي إن هذه المأثرة الكريمة تسجل له في كتاب الله لتكون أرفع وأسمى من أي مأثرة.

كان الملك الصالح يصغي إلي حتى نهاية أقوالي. مظهرأ عطفاً ومجاملة. ومعقبأ بكلمات قليلة تليق وتتفق مع طبعه الكريم. وبعد أن فرغت من أقوالي تناول الطاس والإبريق وقال:

(١٨) نسي أن يذكر طبيعة هذه الوسواس ومأناها. ولربما كانت بسبب حادث القتل الذي ذهب ضحيته (پومپيو) وهو ميلاني. وخوفه من مطلب ثار هناك.

- لعمري هذا شيء لا أعتقد أن القدماء قد عرفوه. وأنا أذكر جيداً مبلغ إطلاعي على كل آثار خيرة فناني إيطاليا في هذا المجال ولم أجد شيئاً أثار إعجابي كهذين.
قال الملك هذا للكردينال مستخدماً اللغة الفرنسية مضيفاً إليها الكثير من عبارات المديح والتهنئة ثم إلتفت إليّ وقال بالأيطالية:

- بنقنوتو! رفّه عن نفسك بضعة أيام. وأزح عن رأسك عوامل القلق. وإقض وقتاً طيباً. وستقوم أثناء ذلك بالترتيبات اللازمة لتوفير ما تحتاجه للبدء بما نعهده إليك من أشغال فنية.

تبين الكردينال فرارا مبلغ سرور الملك بي وأدرك على ضوء الأشياء القليلة التي عرضتها عليه بأن جلالته ينوي أن يعهد لي بأعمال هامة جداً تحتلّ تفكيره. في هذا الوقت كنا نتبع البلاط أو بالأحرى نتنقل في أعقابه ذلك لأن الركب الملكي يتحرك في رحلاته بإثني عشر ألفاً من الفرسان من الساقية خلفه. وفي وقت السلم عندما يكون البلاط كاملاً يبلغ العدد ثمانية عشر ألفاً. ولذلك كان زخم البلاط وقتذاك في حدّه الأدنى. وهكذا صرنا نتبع الركب ونجتاز بقاعاً لانجد فيها منزلين أحياناً. وضرنا خيامنا مثل العجر^(١٩) ولقينا مختلف المتاعب والإزعاجات. وواصلت إلحاحي على الكردينال ليستأذن لي من الملك بإرسالني الى حيث أباشر عملي. فأجاب إن أفضل شيء هو الإنتظار حتى يذكرني الملك من تلقاء نفسه وبدون تنبيه وان عليّ أن أظهر نفسي للملك بين الفينة والفينة أثناء تناوله طعامه. ففعلت ما أشار به. وفي صباح ذات يوم ناداني جلالته أثناء ما كان يتناول طعامه وشرع يكلمني بالأيطالية قائلاً إنه إعتزم تكليفي ببضعة أعمال هامة جداً. وإنه سيصدر إليّ في القريب العاجل التعليمات حول المحل الذي سأزاول فيه عملي وبتزويدي بكلّ ما احتاجه. وأضاف أقوالاً لطيفة أخرى في مسائل مختلفة. وكان كردينال فرارا موجوداً أثناء ذلك لإعتياده تناول فطوره مع الملك في أكثر الأحيان. وقد أخبرت فيما بعد أن الكردينال بعد أن نهض الملك وترك المائدة قال:
- أيها الملك الأقدس، إن بنقنوتو هذا متلهف جداً للبدء بالعمل، ومن الحيف أن يضيع وقت مثل هذا الفنان.

فأجاب الملك بأنه محق في هذا تماماً وعليه أن يتداول هو معي بخصوص تدبير معاش لي. فإستدعاني الكردينال مساء اليوم نفسه بعد العشاء وأخبرني عن جلالته بأنه قرر بأن أباشر في العمل إلا أنه أراد أن يعرف الراتب الذي سيجره عليّ ثم أردف:

- يبدو لي أن لو أجرى عليك جلالته ثلاثمائة كراون سنوياً، فإنك ستكون في خير حال. ومهما يكن فإنني أرغب في أن تترك لي تدبير الأمور فكلّ يوم يمرّ يزودني بفرصة للقيام بتحقيق شيء ما في هذه المملكة العظيمة. وإنني سأكون في عونك دائماً وبدون تحفظ.
وعندها أجبتته قائلاً:

- يا صاحب النيافة، عندما خلّفتني وراءك في فرارا دون طلب مني. كنت قد وعدتني بالألا تخرجني من إيطاليا إلا وأنا على علم تام بالشروط التي ستربطني الى الملك. وبدلاً من إنبائي بهذه الشروط

(١٩) هم "الكاولية" في العراق. و"النور" في سوريا ولبنان. و"العجر" في مصر.

وإبلاغي بالمعلومات عن مركزي. أمر سيادتكم الكليّ الإحترام بأن أسافر فوراً بالبريد السريع كأن فناً كهذا الذي ملكته يمكن تسفيره بالبريد. ولو أنك أعلمتني بأن مرتبي سيكون ثلاثمائة كراون كما ذكرت لما قدّمت رجلاً واحدة ولو كان ضعف هذا المبلغ. وعلى أية حال فأنا أحمد الله الله ثم أشكر نيافتك أيضاً لأنه سبحانه تعالى قد سخّر أداة لفضل عظيم عليّ وهو إخراجي من السجن. ألا إسمح لي أن أقول هذا لسيادتكم: إن كلّ هذه الضربات القاسية التي تنزلها بي الآن لاتنقصُ جزءً من الألف، من الحسنات العظيمة التي تكرّمت بها عليّ. إني أشكركم بمجامع قلبي وأستأذّنك بالسفر وسأبقى أينما كنت ومهما عشت أدعو الله لك بالتوفيق.

ثار تائر الكردينال وإنفجر يقول غاضباً:

- إذهب أنى شئت. لا يمكن أن يحسن المرء لأحد بالقوة.

وقال بعض رجال حاشيته من المتسكعين الذين لا نفع فيهم:

- يظن أنه يقوم بإتخاذ قرار صائب برفضه ثلاثمائة كراون دخلاً سنوياً!

إلا أن أفطن من فيهم قال:

- لن يقع الملك على رجل مثله. وها هنا كردينالنا يحاول المساومة عليه وكأنه حزمة حطب.

وبلغني فيما بعد أن قاتلها هو (لويجي آلاماني). وقد وقع هذا كله في (الدوفينييه Douphie) (٢٠)

وفي قلعة نسبت إسمها في آخر يوم من تشرين الأول.

تركت مجلس الكردينال وعدت الى مخيمي الذي كان يبعد مسافة ثلاثة أميال. وكان يرافقني أحد أمناء سرّ الكردينال وهو يقصد عين الموضع. ولم يكن يكفّ طول الطريق عن سؤالي ماذا أتوي أن أفعل وأي شكل من أشكال المكافأة أتصورها لنفسي. فلم أجب بأكثر من العبارة الموجزة: "لقد توقعت كلّ هذا".

وصلت مقري فوجدت پاگولو واسكانيو وقد لاحظا ما أنا عليه من ضيق الصدر. فصارا يلحّان عليّ بمصارحتهمما والكشف عما يؤلني. ولم أدركت مبلغ قلقهما قلت:

- غداً صباحاً سأعطيكم ما لا أكثر من الكفاية للوصول الى أيطاليا بكلّ راحة. وأما أنا فسأذهب وحدي لمهمة بالغة الأهمية كنت أريد إنجازها منذ زمن طويل.

لم يكن يفصل بيني وبين غرفة أمين السرّ غير جدار. ومن المحتمل جداً أنه كتب للكردينال بما نويته. إلا أنني لم أتحمق من هذا مطلقاً.

بتّ مؤرقاً. وبدا وكأن دهرًا مرّ قبل طلوع الفجر ومباشرتي في تنفيذ ماقررتّه. وأمرت بإخراج جوادي عند الفجر وتهيأت بسرعة وأعطيت تلميذي كلّ ما جئت به من متاع الى جانب خمسين دوقية. واحتفظت لنفسي بمثلها فضلاً عن عن ألماسة الدوق. ولم أحمل من أمتعتي غير قميصين وكانت ثياب سفري تميل الى الرثاثة. إلا أنه كان من الصعوبة بمكان فراق الشابين اللذين عقدا العزم على العودة معي على كلّ حال. ولذلك لجأت الى الحشونة فإنتهرتهما بقولي:

(٢٠) مقاطعة في جنوب شرق فرنسا ومركزها مدينة ليون.

- أحدكما نبتت لحيته والثاني طرّ شاربه وكلاكما رجل. وقد تعلمتما مني أكثر ما أحاط به فنيّ
ويقدر ما تمكنت من تعليمكما فصرتما الآن في مقدمة الفنانين الشبان الإيطاليين. أفلا يدرككما
الحجل من إفتقاركما الى الشجاعة للإستغناء عن الخيوط التي تحرككما؛ هيا أغربا عن وجهي.
وليبارككما الله ألف مرة ووداعاً.

ألويت عنان جوادي وتركتهما وعيونهما تفيض دموعاً، وسلكت طريقاً لطيفاً يمتد خلال غابة وأنا
عازم على قطع أربعين ميلاً على الأقل في ذلك اليوم للوصول الى بقاع غير مطروقة بقدر ما يمكن.
وفي أثناء الميلين التي قطعتهما عاهدت نفسي أن لا أغشى أي مكان يعرفني فيه إنسان، وفقدت
الرجبة في إنجاز أي عمل بإستثناء هيئة السيد المسيح بطول ثلاثة كوبيتات محاولاً الإقتراب من
الجمال الرّائي قدر إمكاني. ذلك الجمال الذي كشفه بنفسه لي. وبهذه النية التي إستقرّ عليها فكري
تماماً لويت عنان حصاني بإتجاه القبر الأقدس.^(٢١)

وفي الوقت الذي خيل لي أنني إبتعدت مسافة يصعب معها العثور عليّ. سمعت ورائي وقع سنابك
خيل، فإنشغل بالي لأن الشائع أن المنطقة التي أجتازها تسيطر عليها عصابة من قطاع الطرق تدعى
بـ(عصبة المغامرین) إعتادوا الفتك بالناس في الطريق. ومع أن عدداً كبيراً كان يُشقق منهم يومياً،
فإن ذلك لم يكن يردعهم كما يبدو. وعندما إقتربت الخيل مني تبينت في أحد الفارسيين ساعي الملك
يصحبه اسكانيو. وهتف أولهما عندما حاذاني:

- بأمر الملك عليك أن تعود اليه دون تأخير.

فأجبت إنه جاء من لدن الكردينال ولهذا السبب أرفض العودة. فقال مادمت أرفض العودة طوعاً
فإن لديه من السلطة ما يخوله دعوة السكان المحليين وتقييدي كأبي سجين. وراح اسكانيو يتوسل
بحرارة طالباً مني الرجوع قائلاً ان الملك ما أن يقبض على طليّته مقيداً فإنه يبقى مسجوناً خمس
سنوات على الأقل قبل أن يطلقه. وبسماعي لفظة سجين تذكرت سجنني في روما فشاع الفزع والخوف
في نفسي فأدرت جوادي الى الناحية التي أوما إليها الساعي الملكيّ وإنطلق بي جوادي وأنا ساكت
واجم بينما ظلّ الساعي طوال الطريق يثرثر بالفرنسية على نفس واحد ولم يقف لسانه حتى أوصلني
الى البلاط: كان يتهددني أناً وينتقل الى موضوع أناً، ثم يتحول الى آخر، حتى كدت أنشق غيظاً.

ومررنا من أمام مقر الكردينال فرارا ونحن نتجه الى مقرّ الملك. وكان واقفاً بالباب فناداني بقوله:

- ان الملك القويم الدين بإختياره المحض قد نسب ان يكون مرتبك السنوي بقدر ما أجرى للرسم
(ليوناردو دافنشي) اعني سبعمائة كراون. كما انه سيدفع لك أجراً عن كل عمل تنجزه له.

وسيمنحك خمسمائة كراون تسديداً لنفقات سفرك الى هنا على ان تُسلم لك قبل رحيلك.

بعد ان إنتهى من قوله هذا أجبت إن هذه المخصصات التي ذكرها جديرة حقاً بمثل هذا الملك. ولم
يكن ساعي الملك حتى تلك اللحظة يعوف هويتي. فلما سمع هذه العروض الكبيرة التي قدمت لي
نيابة عن الملك بادر الى طلب العفو مني مراراً في حين عقّب (پاگوليو واسكانيو) على الأمر

(٢١) أي شرقاً الى أورشليم القدس.

بقولهما:

- رأيت كيف ساعدنا الله على عودتنا على الإمساك بطرف الخيوط المحركة.
في اليوم التالي توجهت لأرفع شكري الى الملك. فعهد اليّ بصنع نماذج لاثني عشر تمثالاً من الفضة تستخدم بمثابة شمعدانات حول مائدته ستة منها تمثل آلهة ذكوراً وستة منها آلهة إناثاً على أن يكون ارتفاعها بطول قامته جلالتة بالضبط وكانت تقلّ عن أربعة كويبتات بالقليل^(٢٢). وبعد أن ألقى اليّ بأمره هذا إلتفت الى أمين خزانته وسأله هل دفع لي خمسمائة كراون؟ فأجاب هذا بأنه لم يؤمر بذلك. فبان الإنزعاج على الملك لأنه كان قد أوصي الكردينال بإبلاغه بصرفها لي.

كما إنه أشار بوجوب رحيلي الى باريس لأجد لي محلاً مناسباً للعمل الذي أناطه بي. وقال انه سيرتب لي مسكناً لإقامتي. فقبضت الكراونات الخمسمائة وتوجهت الى باريس ونزلت في دار تعود للكردينال (فرارا) وهناك شرعت بعون الله في عملي. فهيات أربعة نماذج صغيرة من الشمع كل واحد بارتفاع ثلثي كويبت تمثل الآلهة: جوبيتر وجونو وأبوللو، وفولكان. وفي أثناء ذلك عاد الملك الى باريس فأسرعت لمقابلته مع النماذج الأربعة وتلميذي پاگولو واسكانيو. فأبدى جلالتة إرتياحه لما رأى وأمرني أن أبدأ به (جوبيتر) بالحجم الذي ذكرته آنفاً. ثم قدمت له مساعدتي وأعلمته بأني جئت بهما من إيطاليا ليكونا في خدمته، وليعاوناني في ما لا يقوى عليه أمهر الصناع في باريس لأني أشرفت على تعليمهما. فسألني أن أقترح لكل منهما مرتباً كافياً. فقلت إن مائة كراون لكل منهما كافية إذ أنني سأعمل على أن يكسبا دخلاً من مصادر أخرى فوافق على ذلك.

بعد هذا أعلمت جلالتة بأني عثرت في إعتقادي على محلّ مناسب جداً للعمل الذي عهد به اليّ وهو جزء من أملاك جلالتة الخاصة ويعرف به (پتي نل Pétit Nesle)^(٢٣) وواضع اليد عليه في الوقت الحاضر هو حاكم باريس الذي كان جلالتة قد أطلق يده فيه. ولكن الحاكم لا يستفيد منه. فلو رأى جلالتة أن يمكنني منه لأستغله في خدمته. فأجاب الملك على الفور:

- المحل محليّ وهو من أملاكي الخاصة، وأنا على علم تام بأن الرجل الذي أطلقت يده فيه لا يشغله بنفسه ولا ينتفع به. لذلك خذه وإستخدمه لمشاريعنا.

ثم أصدر أمراً لمرافقه العسكري بإسكاني في القلعة ولكن هذا الضابط بدأ متردداً وأبدى عجزه عن القيام بالمهمة، فردّ الملك غاضباً أنه يريد أن يعطي ما يعود له لأي شخص يختاره والى من هم في خدمته- والرجل الآخر لم يقدم له أية خدمة. وأضاف إنه لا يريد أن يُضاف أي قول الى ذلك. فعقبّ العسكري قائلاً إنه من الضروري استخدام قدرٍ ما من القوة فأجاب الملك:

- إذهب إذن وإن لم تكن القوة القليلة كافية لإستخدم الكثير منها.

(٢٢) أي حوالي (١٧٠) سنتيمتراً.

(٢٣) هو جزء من برج أو قلعة دي نل Tower (Chateau) de Nesle كان يقع على الضفة اليسرى من نهر السين. واليوم تقوم على أرضه مديرية دار الضرب. والمعهد الفرنسي L'Institut de France. ووصف بالصغير تمييزاً عن الآخر الذي يقع على الضفة اليمنى وتقوم على أرضه اليوم غرفة التجارة La Bourse de Commerce. [حاشية بلون].

فأخذني الى الموضع حالاً ولجأ الى القوة لتمكينني منه، وأذرنني بأن أكون على حذر وإلا قُتلت. وضعت يدي على العقار وإستأجرت خدماً وإبتعت حراباً ضخمة وبقيت عدّة أيام لا أعرف للراحة معنى. فالشاغل السابق حاكم باريس هو نبيل خطير الشان والبقية كانوا كلهم يناصروني العداء. واسقط في يدي وعجزت عن الصمود تجاههم. وهنا عليّ أن لا أنسى ذكر إبتدائي بالخدمة عند الملك. فقد كان ذلك في العام ١٥٤٠ وقد بلغت الأربعين من العمر.

إضطرت إزاء مهاجمتهم العنيفة لي- الى مراجعة الملك راجياً منه تأمين حلٍ آخر. ولما تقدمت برجائي هذا إلتفت اليّ وقال بحدّة:

- من أنت؟ ما إسمك؟

صعقتُ وإنعقل لساني وحررت في قصده. وقفت جامداً ساكتاً وعاد الملك يكرر سؤاله كأنه منفعل. فأجبت أن إسمي هو بنثنوتو.

فأجاب الملك:

- حسن جداً! إن كنت أنت بنثنوتو الذي سمعت به فقم بما يتوقع منك عادة، إني أعطيك مطلق الحرية في التصرف.

فأجبت حسبي أن أكون متمتعاً بالحظوة لدى جلالته أمّا ما عدا ذلك فلاشيء يمكن أن يلحق بي أذى. فإبتسم الملك إبتسامة خفيفة وقال:

- إذهب إذن ولتعتد دائماً على مكانتك عندي.

ثم أمر فوراً وزيره (مسيو دي فيللو دي Villerois) أن يشرف على تزويدي بكلمة أحتاج. وكان (فيللو) هذا من أصدق أصدقاء الرجل الذي يدعى به (الحاكم) شاغل ال(پتي نل). وهو حصن مثلث الأضلاع ملتصق بسور المدينة، وكان حصناً عتيقاً إلا أنه خال من حامية عسكرية، وهو واسع جداً. نصحتني السيد فيللو هذا أن أنشد لي محلاً ثانياً، وأن أتركه مهما كلفني ذلك لأن واضع اليد عليه رجل كبير النفوذ وسيعمد الى الفتك بي بلا ريب. فأجبت إن السبب الوحيد الذي دفعني الى ترك أيطاليا والمجيء الى فرنسا هو خدمة هذا الملك الجليل: وأما عن الموت فإن لكلّ أجل كتاباً. وسأموت يوماً ما قصر أجلي أم طال والأمر لدي سيان. كان (فيللو) هذا شخصية قوية جداً وكل شيء فيه يدعو الى الإعجاب وهو فاحش الغنى لم يتورع عن الأخذ بكلّ وسيلة لإقلاق راحتي، إلا أنه لم يظهر أي أثر لشعوره الحقيقي. فقد كان رجلاً جدياً، بهيّ الطلعة والهيئة. يتكلم ببطء وثقة، وقد عهد بأمر إزعاجي الى نبيل آخر يدعى (مسيو دي مارمانيا M. di Marmagna). الذي كان مدير مال مقاطعة اللانگدونك^(٢٤) Languedoc. فأول عمل قام به هذا الرجل هو انه إختار افضل الحجرات في الحصن وهبأها لسكانه. فنبهته الى إن الملك قد سلمني الحصن لأستخدمه في إنجاز أعماله وإني لا أنوي أن أدع أحد يسكن فيه غيري وغير خدمي. وكان شخصاً متعجرفاً شديد الإعتداد بنفسه عصبياً

(٢٤) مقاطعة جنوبية مركزها مدينة (تولوز). والإسم مركّب = Langu-de'oc. ومعناه الحرفي (لغة الأك) وهي لغة بروفنسالية قديمة مازال يتداولها حتى الآن عدد محدود من سكان المقاطعة.

المزاج وقد قال لي إنه سيفعل ما يحلو له وخير لي أن أضرب رأسي في جدار من مقاومته، وإن كل ما يقوم به هو بتفويض من (مسيو فيلرلوا). فأجبتته ان تفويضي مصدره الملك وليس له ولا لفيلرلوا أن يتصرفا بهذا الشكل. وما أن قلت هذا حتى راح الرجل الغطريس يشتمني ويهينني بلغته الفرنسية. فقلت له بالأيطالية- إنه كذاب فثار ثائره وأتى بحركة كأنما يهيم بإستلال خنجره الصغير. فبادرت الى وضع قبضتي على خنجري الكبير الذي لم يكن يفارقني لغرض الدفاع عن نفسي وصحت به: "إن إستللت خنجرك فأنت هالك لا محالة".

كان يواكب (مارمانيا) خادمان له وكان معي فتياي. فتردد قليلاً وهو غير مستقر على نية إلا أنه كان يميل الى الغدر وراح يتمتم لنفسه: "إني لن أتحمّل هذا". وجدت الموقف يزداد سوءاً وينذر بسوء العاقبة. فإتخذت قراراً سريعاً وقلت ل(ياغوليو واسكانيو):

- ما أن تشاهداني أجردّ خنجري حتى تلقيا بنفسيكما على الخادمين وتردياهما قتيلين إن أمكنكما. وأما أنا فسأجندل هذا الرجل بضربة واحدة ثم ننجو بأنفسنا هارين.

بعد أن سمع (مارمانيا) قولي أثر أن يترك القلعة شاكرأ حسن حظه لخروجه حياً. فقامت بكتابة كل ما وقع للكردينال فرارا مع بعض تعديل، فنقله للملك فوراً فما كان منه وقد عيّل صبره إلا أن عهد بأموري الى الفيكونت (دوربيك d'orbic) وهو من ضباط حرسه. فقام هذا الرجل بسد حاجاتي بألطف شكل متصور.

بعد أن قمت بترتيب مقرّ سكناي ومحل عملي وأثنتهما بما يلزم لراحتي وعملي بخير ما تسنى لي. إنكفأت الى تصميم ثلاثة نماذج بالحجم المطلوب لتماثيل الفضة وهي (جويتير ومارس وفولكان) عملتها من الصلصال المسلح بالحديد. ثم أسرعت لمقابلة الملك الذي كان قد أمر بأن أسلم مازنته ثلاثمائة پاوند من الفضة على ما أتذكر لأبدء بها العمل. وكنت خلال إشتغالي بالنماذج قد أكملت العمل بالطاس والإبريق. فصقلتهما صقلاً بديعاً وظليتهما ولم يكن في فرنسا كلها ما يضايهما جمالاً- وحملتهما فوراً الى كردينال (فرارا) فشكرني بحرارة ثم أخذهما بنفسه الى الملك وقدمهما هدية له. فسّر بهما وأنشأ يغدق علي آيات المديح والثناء مما لم يحظ به أحد مثلي منه. وقابل الملك هدية الكردينال بمنحه ديراً يغلّ عليه سبعة آلاف كراون سنوياً. وهم بأن يقدم لي هدية كذلك إلا أن الكردينال أوقفه وحال دون ذلك بقوله اني لم أنتج له شيئاً بعد وعليه ان لا يستعجل. اما الملك المطبوع على الكرم فقد خالفه بقوله:

- لكنني اريد تشجيعه وشحنه همته ليخدمني بإخلاص.

فعرا الكردينال خجل واجاب:

- مولاي ارجوك أ تترك هذا لي، وسأجري عليه راتباً سنوياً لا يقلّ عن ثلاثمائة كراون حالما أتسلم إدارة الدير.

في الواقع لم أحصل على أي شيء منه. ويطول بي كثيراً شرح حيل هذا الكردينال في حين أريد أن أقصر حديثي على الأهم من الأمور.

عدت الى باريس وصرت موضع إعجاب الناس للحظوة التي نلتها عند الملك، تسلمت الفضة وبدأت أشتغل بتمثال (جويتر) وبعد أن إستخدمت عدداً كبيراً من العمال باشرت العمل بتفرغ ودأب دون توقف ووصلت الليل بأطراف النهار. فباشرت بصبّ تمثال (جويتر) ولم ينقض طويل زمن على إكمالي نماذج التماثيل الثلاثة جويتر ومارس وثورلكان. وقطعت فيه مرحلة لا بأس بها. وبدا منظر مصنعي مهيباً. وفي تلك الأثناء عاد الملك الى باريس فقامت بزيارته وما وقع نظره عليّ حتى ناداني هاشاً باشاً وسألني هل هناك شيء جميل في مصنعي يمكنه أن يطلع عليه، فإذا كان ذلك فسيأتي لزيارتي. فأحطته علماً بما أنجزت فتملكته رغبة قوية لرؤيته وتوجه الى مصنعي بعد الغداء ومعه مدام دي تامب Mme. d'Etampes^(٢٥) وكردينال اللورين C. de Lorraine^(٢٦) وأمراء آخرون منهم ملك الناغار حتته^(٢٧) وملكة الناغار شقيقته. فضلاً عن (الدوفان والدوفينه)^(٢٨). وهكذا إجتمع في مصنعي زهرة أمراء البلاط في ذلك اليوم. وكنت قبل ذلك قد عدت الى المصنع وإستأنفت عملي ففوجئت بالملك عند باب القلعة وسمع أصداً وقع المطارق وأمر من يرافقه بالسكوت. وكان جميع العمال منصرفين الى العمل غير متوقعين زيارة الملك وقد بوغت أنا نفسي. دخل قاعتي وكنت أول من وقع نظره عليّ. وأنا واقف أشتغل بصفيحة من الفضة لجسم جويتر كبيرة الحجم وآخر يضرب برأس مطرقتة وثالث يشتغل في الساقين وضجة المطارق تصم الآذان وكان ثم صبي فرنسي الى جانبي يساعطني في عملي وقد أتى بتصريف أزعجني فمددت رجلي وركلته. فأصبت في منفرج رجله وأرسلته يتعثر مسافة خمسة ياردات وتشاء الصدف أن يدخل الملك في تلك اللحظة فتشبهت به الصبي حفظاً لتوازنه فأغرق جلالته في الضحك في حين وقفت جامداً مصعوقاً. ثم بدأ الملك يسألني عما أشتغل فيه ورغب في أن أستمر وقال إنه ليسر جداً أن لا أجهد نفسي بل أستأجر ما أحتاج اليه من الصنّاع وأعهد إليهم بالعمل لأنه يريد أن أحافظ على صحتي لأطيل في مدة خدمتي له. فأجبت: إنني سأعتل فور توقي عن العمل فضلاً عن إنني لن أنجز أعماله بالشكل المطلوب الذي أريده. وظنّ قولي هذا إدعاءً ومباهاة أريد منه المجاملة وحسن الوقع فحسب. فطلب من كردينال اللورين أن يكرر لي أقواله هذه. فأوضحت للكردينال بصراحة وتفصيل الأسباب التي تدعوني لإتخاذ هذا الموقف بحيث إقتنع تماماً ونصح الملك بأن يترك لي الخيار في مقدار ما أقوم به من عمل.

وعاد الملك الى القصر وهو راضٍ تمام الرضا. وأغرقتني بكرمه وألطفاه ولا يتسع المجال هنا لوصف ذلك فالحديث طويل جداً عنها. وفي اليوم التالي أرسل بطلي وقت الظهر وكان على مائدته كردينال

(٢٥) هي آن دي پسليو Anne de Pisseleu. كانت إحدى وصيفات الشرف للملكة لويز دي ساقوي والدة الملك فرانسوا. وزوجها هو جان دي بروس دوق ديتامب فيما بعد وهي محظية الملك. مارست سلطناً عظيماً وكان مصدر ذلك راحة عقلها وقوة إرادتها. إعتنقت المذهب الكالغني في آخر حياتها وتوفيت في ١٥٧٦.

(٢٦) ابن رينيه الثاني دوق اللورين وحامل لقب ملك أورشليم القدس.

(٢٧) ملك الناغار هنري الثاني. وزوجته مرغريت دي فالوا شقيقة الملك فرانسوا واحدة من أعظم نساء زمانها وهي مؤلفة كتاب (هبتاميرون Heptameron) وإحدى المناضلات عن حرية الفكر في كل زمان ومكان.

(٢٨) بعدئذ هنري الثاني ابن فرانسوا وزوجته هي كاترين دي مديتشي والدوفان لقب ولي العهد الفرنسي.

(فرارا) وعند وصولي كان الملك يتناول الصنف الثاني من وجبة الغداء، فتقدمت من جلالته فبادرني بالحديث فوراً وقال "لما كان يملك الآن أجمل طاس وإبريق من صنع يدي فهو يريد أن أرفقهما بـ(مملحة) جميلة. وأضاف يقول انه يريد ان اصنع له نموذجاً وبصورة مستعجلة. فأجبت:

- سيرى جلالتك النموذج بأسرع من الطلب. وذلك لأن فكرة مناسبة المملحة للطاس والإبريق خطرت لي أثناء ما كنت أقوم بصنعهما فبادرت الى تنفيذها وعملت نموذجاً لمملحة فعلاً. فإن شاء جلالتك عرضته عليك دون تأخير.

فالتفت الملك وهو في غاية الإنشراح الى الحاضرين وهم ملك الناغار وكردينال اللورين وكردينال (فرارا) وقال:

- لعمري إنه يعرف كيف يظفر بحبّ وصداقة كلّ من يتصل به.

ثم قال لي انه سيكون جدّ مسرور لو أريته النموذج، فقمتم بالمهمة بسرعة اذ لم يكن يقتضيني ذلك إلاّ عبور نهر السين. وعدت ومعني النموذج الذي كنت قد صنعته في روما بطلب من كردينال فرارا. ونزعت الغطاء عنه حالما وجدت نفسي بمحضر من جلالته، فقال متعجباً:

- إنه ليفوق أروع ماسما اليه خيالي بمائة مرة. إن الرجل لمعجزة والحق يقال وعلينا ان لا نبقيه عاطلاً أبداً.

ثم يتسم بنفس راضية وأبدى سروره من النموذج وأشار عليّ أن أعمله من الذهب الخالص. وحدّق كردينال (فرارا) بوجهي ليفهمني بأنه عرف في النموذج ذلك الذي صنعته في روما وعندئذ ذكرته بقولي له آنذاك: إني سأصنع هذه التحفة لمن قُدّر له ان يمتلكها، فتذكر كلماتي جيداً وبالحرّف الواحد فظهر عليه الإستياء لعلمه بأنني إنتصفت لنفسي منه، فخاطب الملك بقولي:

- مولاي! إن هذا مشروع ضخم جليل. وتحفظي الموحيد هو أنني أشك في أن يبلغ مرحلة التمام. لأن هؤلاء الفنّانين الفطاحل الذي يعلو بهم خيالهم الطمّاح الى تحقيق مثل هذه الفكرة ويتلهفون للشروع فيها، لا يلقون بالأعلى على الوقت الذي يكفّهم لإنجازها ولا يهتمون بموضوع إكمالها. ولهذا فإني سأطلب معرفة المدة التي يستغرقها لإنجاز مثل هذا العمل لو أنني رغبت في صنعها.

فأجاب الملك إن من يتعب عقله حول مسألة الإنتهاء من صنع شيء، لن يبدأ في أي عمل. وكان المعنى الذي يقصده من هذا القول إن عملاً كهذا لم يقدر للنفوس الخائرة. وعندئذ قلت:

- إن الأمراء الذين يشجعون خدمهم بالشكل الذي يقدم عليه جلالته الآن قولاً وعملاً هم المفلحون في تسهيل أشقّ الأعمال. ومادام الله قد أنعم عليّ بمولى عظيم مثله، فإني أمل في إنجاز أهدع الأعمال له.

فقال الملك وهو ينهض تاركاً المائدة:

- وأنا أعتقد بأنك ستفعل حتماً.

ثم إستدعاني الى غرفته وسألني عن مقدار الذهب الذي أحتاجه لعمل المملحة فأجبت: ألف كراون. فأرسل حالاً يستدعي أمين خزانته الفيكونت (دو أوربيك) وأمره أن يسلمني فوراً ألف كراون جيدة

الوزن.

إنصرفت من لدن جلالته، وأرسلت خبراً لمسجلي العقود الذين كانا قد أمنا لي فضة تمثال (جوبتر) الى جانب أشياء أخرى. ثم عبرت السين وتزودت بسلة صغيرة جداً كانت بنت عمي الراهبة قد زودتني بها عند مروري بفلورنسا (من حسن الحظ اني تعوضت بهذه السلة عن الحقيبة) متصوراً اني سأتمكن من قضاء المهمة أثناء النهار، اذ كان الوقت مبكراً ولم أشأ إزعاج رجالي المنصرفين الى أعمالهم أو أخذ خادماً معي. عندما بلغت دار أمين الخزانة وجدته قد عبأ النقود أمامه وهو يفرز القطع بحسب تعليمات الملك. إلا أن هذا الأمين اللص^(٢٩) راح يتشيث بكل حيلة ووسيلة ليؤخري في عملية تسلّم المال ولم ينته من ذلك إلا بعد حلول الليل. ولم يفتني إتخاذ الإحتياطات فقد أرسلت بطلب عدد من عمالي لمرافقتي فالمسألة ليست هيّنة. ولما إستبأتهم سألت الرسول هل بلغ الرسالة؟ فأجاب أحد الخدّام الأندال إنهم بحسب علمه لا يقدرّون على المجيء، لكنه على إستعداد تام لحمل النقود عني. قلت سأحملها بنفسني. وفي أثناء ذلك تمّت كتابة العقد وإنتهى كل شيء وأحصيت النقود ووضعيتها كلها في السلة ودرست يدي في مقبضها وكان عليّ حشر ذراعي بين النقود. ولذلك أصبحت في حرز وأمان، فبات حملها على هذه الشاكلة أهون بكثير من حملها في حقيبة. كنت مسلحاً بسيف وخنجر ومرتدياً زرداً مع قفازيه. وأسرع في سبيلي بأقصى طاقتي ثم لفت نظري بعض الخدم يتهايمسون فيما بينهم ويعدّها أسرعوا بالخروج من المنزل سالكين الجهة المعاكسة. فسرت بخفة وعبر جسر بونت دي شانج^(٣٠) ثم تقدمت وسرت بمحاذاة المسنّاة التي تؤدي الى منزلي في (نل). ثم إقتربت من دير الأوغستيين: وهي أخطر بقعة وتقع على مسافة خمسمائة ياردة فقط من منزلي، إذ كان ذلك الجزء المسكون من القلعة يقع في الجهة القصوى البعيدة فإن صوتي لن يُسمع لو ناديت مستنجداً. لكن عندما رأيت أربعة من الرجال يحملون عليّ بسبوفهم المشهورة صممت بلمح البصر على ما أنوي عمله. أسرعت فغطيت السلة بمعظفي وصرخت بهم وهم يقتربون مني:

- كلّما تكسبون من الجندي هو معطفه وسيفه وأمل ان تكونوا الفريق الخاسر قبل أن أسلمهما.
وقاتلتهم قتالاً عنيفاً وكنت بين الفينة والفينة أبسط ذراعي الى الخارج ليروا بأني لأخفي تحت عباءتي شيئاً في حالة ما لو كانوا متواطئين مع الخدم الذين رأوني أتسلّم المال. وإنتهت المعركة بسرعة فقد أخذوا يرتدون على أعقابهم خطوة خطوة وهم يقولون بلغتهم:
- هذا الإيطالي من الشجعان الصناديد. وبقيناً إنه ليس الشخص الذي نريده. وإذا كان هو فلا يحمل شيئاً.

فصحت بهم بالإيطالية وواصلت الضرب والطعن. وقد كدت أهوي بضربة قتالة أكثر من مرّة ولما وجدوني أطاعن وأقاتل بحذق ومهارة حسبوني جندياً محترفاً ولا شيء آخر. فبدأوا يبتعدون عني شيئاً

(٢٩) قبل برهة وصف جليلني هذا الرجل بالأمانة. وأبدي إرتياحه من تسهيل أموره بفضله.

(٣٠) هو الآن بونت نوف Pont Neuf. وهو أحد الجسور الذي يصل بين شقّي باريس فوق نهر السين ويمر بجزيرة ايل دلاستيبي ويقع جنوب كاتدرائية نوتردام دي باريس.

فشيئاً وهم منضمون متكاتفون يهيمسون بالفرنسية بعضهم لبعض وكنت أنا نفسي أكرر عبارتي الأولى "على كل من يطمع في معطفي وحسامي لن يجد مهمته سهلة" بكل لطف وثبات نفس. ثم بدأت أغمض السير وكانوا يتعقبونني ببطء. فزاد قلقي من هذا إذ خشيت كميناً آخر في إنتظاري وعندئذ سأهاجم من جهتين. ما إن صرت على مسافة مائة ياردة تقريباً من منزلي حتى أطلقت ساقى للريح منادياً بأعلى صوتي "الى السلاح، الى السلاح! أخرجوا أخرجوا إنهم يقتلونني". فخرج في الحال أربعة فتيان بحراب مشرعة وعندما هموا بمطاردة المهاجمين الذين مازالوا مرتين قتل لهم بصوت جهير للغاية:

- هؤلاء الجبناء الأربعة فشلوا في سلب رجل واحد لاغير ألف كراون ذهبي كاد ثقلها يحطم ساعدي. أأ فلذهب ونودعها مكاناً ثم أعود بسيفي ذي المقبضين فنطاردهم الى حيث شتتم. ودخلنا المنزل وتخلصت من الذهب: وراح فتياي يهنئوني على السلامة من الخطر الدايم ثم أخذوا يلومونني قائلين:

- ما أشد إعتماذك على نفسك، سيأتي يوم تعطينا منه سبباً للأسى. فأدليت لهم برأيي إلا أنهم أصرّوا وزادوا، وهرب أعدائي. فعدنا الى الدار جميعاً لتناول العشاء بمعنويات عالية جداً نضحك لتصاريف القدر العجيبة التي تتجلى لنا في الخير كما تتجلى في الشر، ثم ينتهي الأمر وكأنه لم يكن عندما تخطيء الأقدار هدفها. بالتأكيد إن المرء يقول لنفسه بعد مرور المحنة: "لقد تلقيت درسك يا هذا لأجل المرة التالية!" إلا أن "المرة التالية" لن تكون كالأولى تماماً بل ستختلف.

أول ما بدأت العمل به صباح اليوم التالي هو (الملحة) فأولييتها جانباً كبيراً من إهتمامي فضلاً عن الأشغال الأخرى. في هذه الفترة من الوقت كنت أستخدم عدداً كبيراً من الصنّاع والصاغة والمثاليين. فيهم الفرنسي والأيطالي والألماني. وأحياناً كان عدد المستخدمين يتضاعف فأستبقي أحسنهم وكنت أعمد الى التبديل فيهم وأبقي من هو أكثر معرفة. وأدفع بهم الى العمل الدائب. وكانوا يخلصون في شغلهم حرصاً على أن لا يتأخروا عني، إلا أن بُنييتي كانت أقوى منهم وأكثر تحملاً للعمل الشاق فيعجزون عن مجاراتي ويلجأون الى الإكثار من الأكل وشرب الخمر ظناً أنه يزيد من قدرتهم. ولم يستطع بعض الألمان الذين هم أكثر خبرة من الآخرين الإستمرار في بذل هذا الجهد الشاق الذي ناؤوا به وكاد يهلكهم.

وفيما كنت أتقدّم في تمثال (جويتر) وجدت أنه سيبقى لي مقدار من الفضة بعد صبّه فبدأت أشتغل دون علم الملك بعمل طست فضي كبير بالميتقي إرتفاعه قدما بعروتين متقابلتين. ومالت نفسي الى صبّ النموذج الكبير الذي صنّعه لجويتر بالبرونز وهو عمل لم تسبق لي ممارسته من قبل، فإستشرت بعض الأساتذة الباريسيين المتخصصين في هذا المجال وشرحت لهم كل الطرق المستخدمة في إيطاليا لمثل هذا العمل، فقالوا إنهم لم يمارسوا هذه الطرق. وبيّنوا أنهم يصيّن التمثال بإحكام وسهولة لو تركتهم يطبقون اسلوبهم وانهم سيسلموني أياه تماماً جميلاً كأنه عمل من جيس. فعقدت صفقتي معهم

وعهدت إليهم بالعمل ووعدهم بأن أزيد مقداراً من الكراونات الى الأجرة التي طلبوها. فبدأوا به لكنني لاحظت أنهم سلكوا سبيلاً غير صحيحة، فتركتهم وشأنهم وأشغلت نفسي بتمثال نصفي ل(يوليوس قيصر) أكبر من الحجم الطبيعي كنت قد إستنسخته عن صورة أثرية جلبتها معي من روما. كما بدأت العمل أيضاً برأس آخر بعين الحجم إلا أنني في هذه المرة إستخدمت نموذجاً فتاةً جميلة جداً كنت قد ضممتهما الى منزلي لإشباع شهوتي الجنسية. وسميت الرأس (فونتبلو) تيمناً بإسم الموضع الذي إختاره الملك لقضاء أوقات راحة وإستجمام فيه. بعد أن بُني الفرن الصغير الجميل لصهر البرونز وبعد أن هُبئت القوالب وفُخرت (جويتر يصبه الفرنسيون، وأنا لأصبّ تمثالي النصفيين) قلت لهم:

- لأظنكم ستنحجون في صبّ (جويتر) لأنكم لم تتركوا منافذ تهوية كافية في الأسفل حتى يستوفي الهواء دورته. واني لأجدمكم تبددون وقتكم بلا فائدة.

فأجاب: إنهم سيعيدون لي أجوري إن أخفقوا، كما سيعوضون كلّ خسارة تلحق بي. ومن الخير لي أن أهتم بالرأسين الجميلين اللذين سأستخدم لهما طريقة الصبّ الأيطالية، لنلا يكون الفشل نصيبي. وكان أمين الخزانة وعدد من رجال الحاشية حاضرين أثناء المناقشة؛ يتردد اليّ هؤلاء عادةً وينقلون الى الملك كلّ مايقال ويعمل في مصنعي. وأراد السبّاكان الشبخان الفرنسيان اللذان سيصبّان جويتر أن يتوليا أمر صبّ قالبَي الرأسين لخشيتهما أن الأسلوب الذي أطبقه قد لا يكتب له النجاح ومن الخيف ان يكون مصير مثل هذين الأثرين الفنيين التلف. وعندما سمع الملك بهذا علّق على قولهما بهذه العبارة: من الأفضل أن يتفقا وقتهما بالتعلم لا بمحاولة تعليم أستاذهما.

وبكثير من الضحك والمرح وضعا قالب جويتر في المسبك. ثم قمت بوضع قالبَي كل واحد في جانب من جويتر، غير مظهر إشارة مما يعتمل في نفسي، لم أضحك ولم أنفعل وإن شعرت بميل اليي ذلك. وبعد أن إنصهر المعدن تماماً رحنا ندفع به الى داخل القوالب بإرتياح كبير شملنا جميعاً. فملاً جويتر على أحسن وجه كما ملاً قالبَي فيدت عليهما علامت الإرتياح والفرح كما كنت أنا راضياً: سررت لأنني كنت مخطئاً في تقديري لعملهما وسرورهما كان أكبر لخطئهما في تقدير نتيجة طريقي. وجرباً على عادة الفرنسيين طلبا بمرح صاحب شيئاً من الطعام والشراب. فأمرت بكلّ طيبة خاطر أن يمدّ لهم سباط حافل بأشهى الطعام وأنفس الشراب ثم طلبا دفع المكافأة التي وعدتهم بها. فقلت لهما:

- أكثرتما الضحك وأظهرتما أعظم السرور لما أخشى أن يكون مدعاةً لبكائكما. ففي إعتقادي إن الكمية التي دخلت القالب من المعدن المنصهر أكثر بكثير مما يتطلبه. ولذلك لن أدفع لكما شيئاً يزيد عما تسلمتموه حتى صباح الغد.

بدأ الرجلان المسكينان يفكران بما قلت ثم عادا الى منزليهما دون أن يتلفظا بكلمة واحدة. وفي اليوم التالي شرعا يفرغان المسبك بكلّ لطف وحذر ولم يكن في وسعهما إخراج (جويتر) إلا بعد إزاحة قالبَي. فأخرجاهما وهما في غاية الكمال ليس فيهما أقلّ عيب ونصباهما في وضع صحيح. ثم شرعا بإستخراج (جويتر) وبعد أن بلغا عمق (كوبيتين) في الحفر أطلقا والعمال الأربعة الذين كانوا

يساعدونهما في الحفر صحيحةً داوية سمعتها وأنا بعيد، فأسرعت أعدو إليهما معتقداً بأنهما اطلقا هتاف فرح وإستبشار. كنت في غرفة نومي التي تبعد أكثر من خمسمائة خطوة عنهم. وعندما وصلت اليهما وجدتهما وقد علاهما الغمّ والذهول فمثلتهما بحارسي قبر المسيح كما يبدوان في الصور الدينية^(٣١) وحانت مني إلتفاتة الى تمثالي النصفيين فإذا بهما مصبوبان بكل إتقان فشعرت بأسف يخالطه سرور. وبدأ يعتذران لنفسيهما ملقين كل اللوم على سوء حظوظهما. فكان جوابي لهما قولي: - إن الحظ محالفكما فعلاً. إلا أن السيء فيكما هو إفتقاركما الى المعرفة. ولو كنت موجوداً أثناء وضعكما الهيكل داخل القالب فإن كلمة واحدة مني كانت تكفي لضمان حصولكما على نتيجة طيبة. وبهذا سأكون قد رفعت من سمعتي، في الوقت الذي يعود عليكم بالفائدة. إنني سأحافظ على سمعتي على أية حال ولكنكما لن تخرجا من هذا إلا بالخسارة المادية وسوء السمعة. ولهذا عليكم أن تتعلما في المرة الأخرى كيف تتقنان العمل لا كيف تسخران من الآخرين.

فراحا يتوسلان بي راجين مساعدتي مقرين بصواب رأيي قائلين إن لم أمدّ لهما يد العون فإنهما سيضطران مع أسرتهما الى الإستجداء، إذ كان عليهما أن يسددا النفقات العظيمة التي صرفناها فضلاً عن دفع الخسارة. فوعدتهما أن أسدد عنهما ما بذمتهما للخزانة إن طالبيهما بها محاسبو الملك لأنهما طبقاً ما يعرفانه بأمانة وحرص وبحسن نية. وقد رفع كل ذلك من قدرتي وسمعتي عند أمناء خزانة الملك ووزرائه. وابلغ الملك بكل ما وقع وبكرمه المعهود أمر أن يتم كل شيء وفق ما وعدت. في غضون ذلك ظهر على مسرح الأحداث ذلك الرجل الباسل الصنديد (بييرو ستروزي)^(٣٢) وذكر الملك بوثائق تجنسه فأمر جلالته بأن تُنظّم في الحال ثم أضاف يقول: "ونظّموا أيضاً معها وثائق (صديقي mon ami) بنقوتو، وخذوها اليه فوراً وادفعوا بها اليه ولا تتقاضوا رسوماً عنها"^(٣٣). هذه الوثائق كلّفت (بييرو ستروزي) العظيم عدة مئات من الدوقيات، أمّا أوراقى فقد جاءني بها السيد (انطون لوماسون Antone le Massone) وزير الملك الأول وسلّمها لي مشفوعة برسالة شفوية من الملك. قال:

- إن جلالته يهديك هذا حتى يدفعك هذا الى المزيد من الحماسة والإخلاص في خدمته. هذه أوراق تجنّسك.

ثم أخبرني كيف إن السيد "بييرو ستروزي" لم ينل هذا الشرف العظيم إلا بعد مرور وقت طويل وبناءً على طلبه الخاص. في حين أن الملك شملني بهذا الإنعام من تلقاء نفسه وبدون طلب مني وإن مثل هذه الإلتفاتة السامية لم يحظ بها أحد من قبل في المملكة. فبادرت الى شكر الملك بحرارة على فضله الكبير ثم رجوت الوزير أن يتفضل علي بتعريفي بالأهمية التي تنطوي عليها الوثائق. كان

(٣١) وضع حارسان على قبر السيد المسيح بعد دفنه. وعندما بُعث حياً في غفلة منهما ووجدوا القبر خالياً صعقاً دهشةً.

(٣٢) هو ابن فيليو ستروزي المتقدم ذكره. خدم فرنسوا الأول الذي نصبه مارشالاً بعد هزيمة جيش المبعدين السياسيين

الفلورنسيين في موقعة مونت مورلو Monte Murlo.

(٣٣) نشر بيانكي نصّ هذه الوثيقة. كما نشر أيضاً نص كتاب الملك بتوجيه ملكية قلعة "بتي نل" الى چليني (أنظر

ص ٥٨١).

(مسيو لوماسون) إنساناً ذكياً كَيْساً عالي الخلق يتكلم الإيطالية بطلاقة. عندما وعى سؤالي راح يقهقه ضاحكاً. ثم تحول الى الجدّ فشرح لي باللغة الإيطالية كيف يعتبر هذا أعظم شرف يناله الأجنبي في فرنسا وعقّب في الختام قوله "إنه لأعظم شرفاً من أن تمنح درجة النبيل في حكومة البندقية". وإنصرف ونقل الى الملك حديثي فأطلق ضحكة طويلة ثم قال:

- الآن أريده أن يدرك سبب إرسالي الأوراق إليه. إذهب وقم بتسجيل ملكية قلعة (پتي نل) بإسمه، حيث يسكن وهي من أملاكي الخاصة. وسيكون فهم ذلك أسهل عليه من فهم معنى الأوراق. وجاءني رسول يبشرنني بالمنحة. فهممت بإعطائه البشارة لكنه أبى قبولها قائلاً إن هذه أوامر جلالته. أخذت وثائق الرعوية مع سندات الملكية التي جعلتني سيد القلعة عند عودتي الى إيطاليا وسأبقي محتفظاً بها الى آخر أيام حياتي وفي أي مكان ألفظ فيه آخر أنفاسي.

سأعود الآن الى إستئناف قصة حياتي. كان بين يدي العمل الذي ذكرته آنفاً، أعني تمثال (جويتر) الفضي الذي قطعت فيه مرحلة. والمملحة الذهبية، والطست الفضي الكبير والرأسان البرونزيان، وقد وزعت مجهودي بينها بكلّ مشاركة. كما إني إتخذت التدابير لصبّ قاعدة جويتر وهي قطعة فنية دقيقة جداً حافلة بالتفاصيل الزخرفية من البرونز. ومن زخارفها صورت إغتناب گانيميد^(٣٤) في جهة "ليدا والبجعة" في جهة. بعدها صببتنها بكلّ نجاح. ثم عملت قاعدة مشابهة لتمثال (جونو Juno)^(٣٥) الذي كنت أنتظر له ورود الفضة من الملك لأبشر به. وأكملت التمثالين النصفين كما قطعت شوطاً كبيراً في الأعمال الأخرى. وقمت بإنجاز بعض القطع الصغيرة لكردينال (فرارا) كما إني صنعت إناءً كثير النقش والزخارف لأقدمه هدية لـ (مدام ديتامپ) وأنجزت أشغلاً كثيرة لعدد من النبلاء الإيطاليين كالسنيور پييرو ستروزي و(الكونت دانگويارا Coont d'anguillara) و(الكونت دي پيتيليانو C.de Pitigliano) و(الكونت دللّ ميراندوللا C.della Mirandolla) وآخرين.

وأما بخصوص الملك العظيم فقد تقدم قولتي أنني قمت له بالكثير من الأعمال. ثم إنه عاد الى باريس وفي اليوم الثالث لمقدمه زارني بصحبة عدد كبير من أرفع رجال بلاطه مقاماً. فذهل للقدر الكبير الذي أتولاه من الأعمال وللدقة التي أشغل بها. وكانت صاحبتة (مدام ديتامپ) معه وبدءاً يتحدثان عن (فونتنبلو) فأشارت عليه بأن يعهد اليّ بعمل زخرف جميل للنافورة هناك. فأجاب الملك في الحال:

- انه إقتراح رائع. وسأقرر في هذه اللحظة ما أريد أن يعمله.
ثم إلتفت اليّ وبدأ يسألني عن رأيي في الفكرة وتصوراتي لها بعد ان شرح لي فكرته. فأدليت بمقترحاتي ثم أبلغني بأنه سيرحل الى (سان جرمان آن لايي Saint Germain en Laye)^(٣٦) التي تبعد

(٣٤) في الاساطير اليونانية هي إلهة النساء والأطفال. زوج جويتر وملكة الآلهة وهي عند الاغريق (هيرا).

(٣٥) هي الآن ضاحية من ضواحي باريس وتقع على مسافة ١٢ ميلاً من مركز العاصمة الى الشمال الغربي. من هذا يبدو أن (المرحلة) هي ميل واحد.

(٣٦) هي الآن ضاحية من ضواحي باريس وتقع على مسافة (١٢) ميلاً من مركز العاصمة الى الشمال الغربي. من هذا=